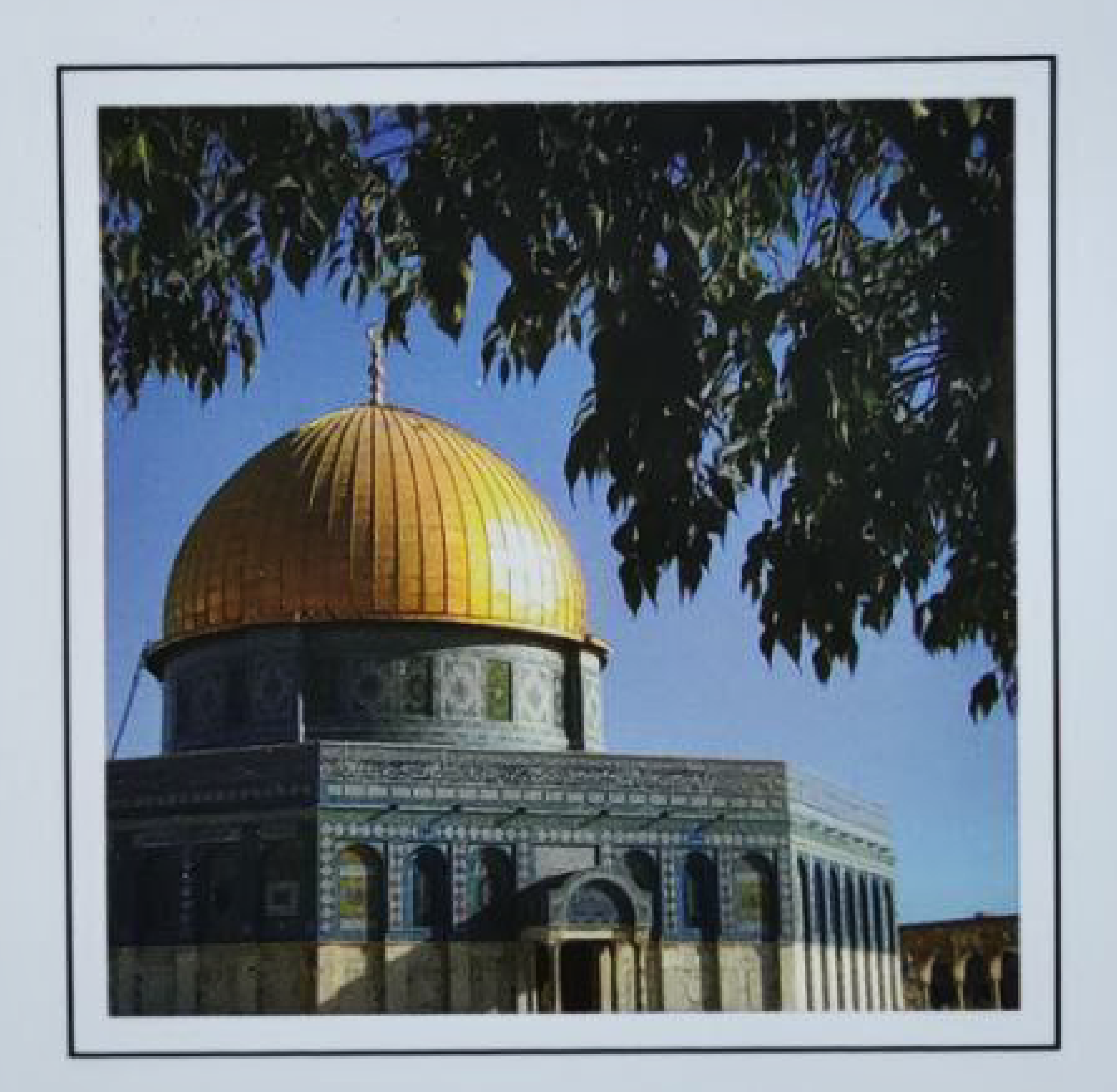
أكرم بركات

يسألونك عن الأنبياء



مجموعة يسألونك

بيت السراج
بيروت | لبنان

اســـم الكتـــاب: يسألونك عن الأنبياء

الـــمـــؤلـــف: الشيخ د. أكرم بركات

الـــنـــاشـــر: بيت السراج للثقافة والنشر

الطبعـة الرابعـة: بيروت ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

يسألونك عن الأنبياء

الشيخ د. أكرم بركات

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة على منبر القائم عجّل الله فرجه الشريف

قضايا تلامس حاجة الناس في الفكر والسلوك وتضيء على طريق سعادة الإنسان، وتوضّح برنامجها تناولها الشيخ د. أكرم بركات على منبر مسجد القائم عجّل الله فرجه الشريف في الضاحية الجنوبيّة لبيروت ثمّ ألبسها ثوبَ الكلمات المكتوبة بين يديك عسى أن تكون محلاًّ للقبول.

المقدَّمة



الحمد للّٰه ربّ العالمين، وصلّى اللّٰه على أنبيائه أجمعين، لا سيّما خاتمهم محمّد بن عبد اللّٰه وآله الطاهرين.

وهلّ شهر رمضان من عام ١٤٣٤هـ علينا ببركاته، وعادت اللقاءات المسجديّة بين صلاتي الظهر والعصر؛ أتناول فيها غذاء الروح مع أحبّائي المصلّين، الذين اخترت لهم هذا العام مواضيع حول أنبياء اللّٰه تعالى، جمعتُها في طيّات هذا الكتاب، وسميّته «**يسألونك عن الأنبياء**»، ليكون مكمّلاً لسابقه «**يسألونك عن اللّٰه**» الذي لاقى استحسانًا كبيرًا، فنفذ منه في سنة واحدة نحو اثني عشر ألف نسخة في طبعات ثلاث، هادفًا من ورائه الإجابة الواضحة عن أسئلة

طالما سُئلتُ عنها من قبل الشبّان المتَحمّسين في حلقات المسجد الحواريّة التي أضحت شبيهة بالمعهد الثقافيّ، لكن بدون لوح ومقاعد، إنّما على بساط المسجد المتواضع. وقد رتَّبت الكتاب على أساس ١٤ سؤالاً أساسيًّا كانت محور الإجابات فيه.

وأخيرًا أسأل اللّٰه تعالى أن يجعله ذخرًا لي يوم القيامة.

أكرم بركات

بيروت/ مسجد القائم

١٤٣٤هـ

1

كيف نتعرّف على طريق كمالنا؟

إنّ هذا السؤال يعتمد على ما أثبتناه في كتابنا السابق «يسألونك عن اللّه» من أنّ اللّه تعالى قد خلقنا لأجل كمالنا.

وكانت خلاصة ما سبق أنّ اللّه تعالى غنيّ، وهو العلّة الأولى الوحيدة لجميع الكائنات، ومنه جميع الكمالات التي نعهدها في هذا الوجود على نحو أتمّ، فهو: حيّ، عالم، قادر، جواد، وهو بالتالي حكيم؛ لأنّ عدم الحكمة، أي عدم وضع الشيء في موضعه المناسب، يكون إمّا عن:

١- حاجة، واللّه تعالى غنيّ.

٢- أو جهل، واللّه تعالى عالم.

٣- أو عجز، واللّه تعالى قادر.

٤- أو بخل، واللّه تعالى جواد.

إذًا هو حكيم.

وبناءً عليه نسأل: لماذا خلقنا اللّه؟

وبما أنّه غنيّ، فإنّ سرّ خلقنا لا يرجع لمصلحة له، بل لمصلحة لنا نحن، وهذا يؤدّي إلى جواب وحيد هو: أنّه تعالى خلقنا لأجل كمالنا. وهنا يأتي السؤال الآتي:

هل يمكن للإنسان أن يتعرّف على طريق كماله، بوساطة آليّات المعرفة الموجودة عنده، من حسّ، ووهم، وخيال، وعقل، وإلهام؟[١]

والجواب: إنّ آليات المعرفة هذه على رغم فائدتها الكبيرة، لا تستطيع أن تعرِّف الإنسان على طريق كماله الذي يتواءم مع:

١- الجسد والنفس.

٢- الفرد والمجتمع.

٣- الدنيا والآخرة.

وبما أنّ اللّه تعالى حكيم، فمقتضى حكمته أن يعرِّفنا على طريق كمالنا عن طريق آخر لم نعهده، وإلاّ يكون حاله تعالى

(١) تمّ شرح هذه المصطلحات في كتاب: «يسألونك عن اللّه».

كحال الشخص الذي يدعو ضيفًا إلى داره، لكنّه لا يدلّه إلى الطريق التي تؤدّي إليها!!.

ما هي الوسيلة لمعرفة الطريق؟

إنَّ عقولنا تدرك بوضوح أنّ اللّٰه تعالى لا بدَّ أن يتواصل مع الإنسان؛ ليعرّفه على طريق الكمال، وبما أنّ هذا التواصل لم يحدث مع كلّ إنسان على حدة، فبالتأكيد أنّه لا بدّ من حصوله مع بعض الناس دون الآخرين.

وفي التاريخ بيانات كثيرة من أشخاص ذكروا للناس بأنّ اللّٰه تعالى قد تواصل معهم عبر طريق خاصّ يُسمّى بالوحي، وأنّ اللّٰه تعالى بوساطة الوحي قد بيّن لهم طريق كمال الناس، وقد أُطلق على هؤلاء الناس مصطلح «**الأنبياء**». وهذا الأمر، وإن كان بعنوانه العامّ منطقيًّا، إلا أنّه يبقى سؤال بحاجة إلى إجابة، هو:

كيف نتعرّف على الأنبياء الحقيقيّين؟

ما هو الدليل الذي يجب أن نعتمده كي نصدِّق إنسانًا يدّعي أنّ اللّٰه تعالى تواصل معه بطريق خاصّ لا تناله حواسّنا وعقولنا؟

من الطبيعيّ أن يصدِّق الإنسان مِن هؤلاء الذي عرفه شخصيًّا بالصدق والاستقامة والكمالات، كما ذكر عن تصديق الإمام عليّ عليه السلام، والسيّدة خديجة، لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم في أوائل دعوته، إلا أنّ هذا طريق خاصّ، غير متوفِّر لأغلب الناس، فضلاً عن كونه حصل في التاريخ، ولا وجود له في واقعنا الحاضر.

إذاً إنّنا نحتاج إلى دليل، يمكن الاعتماد عليه في هذا العصر، لتصديق من ادّعى النبوّة. وهذا ما يتحقّق من خلال ما يُصطلح عليه بالمعجزة.

عناصر المعجزة

المراد من المعجزة - التي هي وسيلة لإثبات النبوّة- ما تتحقّق فيها العناصر الآتية:

١- أن تكون أمرًا خارقًا للعادة.

يعني أن تكون خارجةً عن الأسباب العاديّة والطبيعيّة المعروفة، بحيث تكون ممّا لا يعهده الإنسان، ولا تناله التجربة.

وهنا لا بدّ من التأكيد على أنَّ كونها خارقة للعادة، هو خرقها للأسباب العاديّة، وليس للأسباب والقوانين العقلية؛ لأنّ خرق القانون العقلي مستحيل بذاته، فمن القوانين العقليّة أنّه يستحيل أن يجتمع النقيضان، فلا يمكن أن يجتمع وجود زيد وعدم وجوده من الجهة نفسها، وفي المكان والزمان نفسهما، لذا فإنّ هذا الأمر لا تناله المعجزة؛ لأنّه مستحيل بذاته، كما هو الحال في أنّ ١+١=٢، فلا يمكن لأيّ شيء أن يجعلها أكثر من ذلك أو أقلّ. إضافةً إلى أنّ المعجزة تهدف إلى تصديق الآخرين بالنبيّ ، لإيصال الإنسان إلى كماله، وبالتالي لا بدّ من المحافظة على قوانين عقله التي هي أساس ذلك التصديق، كما أنّها عمدة السير في طريق الكمال.

ومن باب التوضيح نقول:

أ- إنّ الإنسان حينما يريد أن يصعد إلى الطابق العاشر من المبنى، فإنّ وسيلة ذلك أن يعتمد المصعد أو الدرج، أو الحبل أو الطائرة. لكن هل يمكن للإنسان أن يقفز من الأسفل إلى الأعلى، من دون الاعتماد على أيّة وسيلة

ليصل إلى الطابق العاشر؟! نعم، إنّ ذلك ممكن عقلاً، إلا أنّه خارق للأسباب العاديّة التي يعهدها الإنسان.

ب- إنّ تحويل العصا الخضراء إلى أفعى هو خارق للأسباب العاديّة، وليس للقوانين العقلية؛ لأنّه في القانون العقلي يمكن لهذه العصا أن تنحلَّ في التربة، ثم تنبُت من مادتها نبتة جديدة، فتأتي أفعى وتأكلها، فتتحوّل النبتة فيها إلى بيضة، ثم تتحوّل البيضة إلى أفعى.

إذاً تحوّل العصا إلى أفعى أمر ممكن عقلاً، إلا أنّ ما جرى مع نبيّ الله موسى عليه السلام هو خارق للعادة من ناحية تسريع المراحل.

٢- أن يعجز الناس عن الإتيان بمثلها.

بهذا العنصر تفترق المعجزة عن أعمال السحرة، والمرتاضين، وأصحاب الإبداع العلميّ، فهؤلاء قد يقومون بأمور يعدّها الناس خارقة للعادة، إلا إنّها تكون قائمة على أسباب معروفة عند أهل الفنّ والعلم، وينحصر جهلها عند غير أهل الاختصاص، وبالتالي يكون الأمر غير إعجازيّ؛

لإمكان الإتيان بمثله ممّن تعلّم قواعد الفنّ أو العلم، وتعرّف على خفاياه.

٣- أن تكون مطابقةً للدعوى.

والمقصود أن تكون نتيجة الفعل موافقة لما قصده الفاعل، أو طُلِبَ منه، ليكون دليلاً على صدق دعوته، فلو صدر عنه أمر خارق للعادة، لكنّه مخالف لما قصده أو طُلِبَ منه، لكان دليلاً على كذبه، بدل صدقه، وهذا ما نُقل حدوثه مع مسيلمة الكذّاب عندما طلبوا منه أن يتفل في بئر لتفيض ويكثر ماؤها، إلا أنّ ما حصل هو أنّه غار الماء متراجعًا إلى عمق الأرض، فدلّ ذلك على كذبه.

٤- أن يكون مصحوبًا بدعوى النبوّة.

حتّى يدلّ الأمر الخارق للعادة على نبوّة الفاعل، لا بدّ أن يكون مصحوبًا بدعواه النبوّة؛ لأنّه قد تحصل أمور خارقة للعادة من قبل بعض الأئمّة أو الأولياء، من دون دعواهم للنبوّة، وهذه الأمور قد تسمى - في الاصطلاح- كرامات لا معجزات.

النتيجة

حينما تتحقّق هذه العناصر الأربعة في فعل مَنْ يخبر عن اتصاله باللّه تعالى، عبر الوحي، الذي لا نستطيع أن ندركه بشكل مباشر، فإنّ فعل المعجزة يكون دليلاً على صدقه في دعواه، وبالتالي نُصدِّق أنّه نبيّ، وأنّه مكلّف من اللّه تعالى أن يخبرنا عن الطريق التي توصلنا إلى كمالنا.

ما هي المعجزة في هذا العصر؟

نلاحظ عند قراءة الأديان المنسوبة إلى اللّه تعالى أنّها اعتمدت في إقناع الناس بها على المعاجز، كما في الآتي:

أخبر الدين اليهودي عن معاجز نبيّه موسى عليه السلام، ولعلّ أهمّها العصا التي فُلِقَ بها بحر عظيم إلى فلقتين كطودين، والحجر الذي بضربه انبجست العيون...الخ. لكنّي كإنسان يعيش في القرن الواحد والعشرين، أقول لليهود: أروني هذه العصا وفعلها، وذلك الحجر وأثره؛ لأصدِّق نبيّكم، وإلاّ فما تذكرونه هو بمثابة حكايات لا أستطيع أن أؤمن بها من دون دليلٍ معاصرٍ لي.

وأخبرت الديانة المسيحيّة عن كثير من معاجز عيسى بن مريم، كإحيائه للموتى، وشفائه للمرضى وغير ذلك.

لكنّي أيضًا أسألهم: إنّي لم أعش في عصره، وأشاهده يفعل ذلك، لأصدِّق مقولتكم، فأين دليلكم في هذا العصر على قطعيّة ما حدث؟!

يمتاز الدين الإسلامي عن ما سبقه من أديان بأمرين:

١. إنّه يطرح نفسه خاتمًا للأديان، معترفًا بأديان سبقته، منها اليهودية والمسيحيّة، ممّا يجعل أولويّة الباحث عن نبيّ الإسلام تنصبّ عليه أولاً، باعتبار أنّه الطرح الأخير.

٢. طرح الإسلام نوعين من معجزات نبيّه:

الأول: يُشبه ما سبق من معجزات مطروحة في اليهودية والمسيحيّة، كمناداته للشجرة التي استجابت له، فانقلعت من جذورها، وتوجّهت نحوه، إلاّ أنّ ما طُرِحَ على أصحاب الديانتين السابقتين يأتي بنفسه في هذا النوع من المعجزات، فأنا لم أشاهد ذلك كي أصدِّق به.

الثاني: هي معجزة خالدة تصلح كمعجزة في كلِّ عصر؛

بمعنى أنّ فيها جميع عناصر الإعجاز، بحيث يتعرَّف عليها ابن القرن الواحد والعشرين، كما يتعرَّف عليها من كان في عصر النبيّ محمّد ﷺ، ويقتنع بها، كما اقتنع بها أصحاب محمّد ﷺ، ألا وهي القرآن الكريم.

فكيف نثبت في هذا العصر أنّ القرآن معجزة؟

لمعرفة الجواب تابع الإجابة عن السؤال الآتي.

2

كيف نثبت أنّ القرآن معجزة في هذا العصر؟

(١) الإعجاز البلاغيّ

من الواضح عند تتبُّع سير من ادّعوا النبوّات أنّ معجزاتهم كانت مفيدة في عصورهم، لا سيّما أنّها كانت في مقام التحدّي لأعلى التطوّرات الحاصلة في تلك العصور، فموسى عليه السلام طرح معجزة العصا، والحجر، واليد البيضاء، في زمن انتشر فيه السحر، وعيسى عليه السلام طرح معجزة إحياء الموتى، وشفاء المرضى، في زمن راج فيه علم الطبّ، لا سيّما أنّ فلسطين وسوريا كانتا في عصر المسيح عليه السلام مستعمرتين لليونان الشهيرة بالطبّ.

ومثل هذه المعاجز تنفع للتصديق بها في زمانها، أو

الزمن المتّصل بها، إلا أنّها لا تصلح لكونها خالدة في كلّ عصر، كما هو واضح، فالخالد لا بدّ أن يحمل عناصر الإعجاز بحيث يكون له فاعلية في كلّ زمن.

وقد طرح الإسلام القرآن الكريم معجزة تنفع في عصر نزوله، لا سيّما أنّ التحدّي به كان في الزمن الذي راج فيه الأدب، والشعر، والخطب، والكلام البليغ، وأيضًا هو يَنفع معجزة في كلّ عصر؛ من ناحية كون النصّ القرآنيّ نفسه معجزة.

ولمعرفة مدى صحة هذا الكلام، علينا أن نطبّق عليه عناصر الإعجاز الأربعة التي مرّت عند الإجابة عن السؤال السابق، وهي:

١- أن يكون خارقًا للعادة.

٢- أن يعجز الناس عن الإتيان بمثله.

٣- أن يكون مطابقًا للدعوى.

٤- أن يكون مصحوبًا بدعوى النبوّة.

ونبتدئ بالتطبيق من العنصر الأخير انتهاء بالأوّل.

١- هل القرآن مصحوب بدعوى النبوّة؟

إنّ هذا الأمر واضح لا شكّ فيه.

٢- هل القرآن مطابق للدعوى؟

إنّ هذا الأمر أيضًا واضح من جهة مواءمته لطرح النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

٣- هل عجز الناس عن الإتيان بمثله؟

لقد تحدّى القرآن الناس أن يأتوا بمثله بشكل صريح، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[١].

بل تحدّى القرآن الناس أن يأتوا بعشر سور مثل سوره، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢].

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٨.
(٢) سورة هود، الآية ١٣.

بل تحدّاهم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١].

ومع كلّ هذا التحدّي للعرب، وهم في قمّة البلاغة والفصاحة، لم يسجّل لنا التاريخ أيّة محاولة ناجحة أثبتت قدرة الناس على الإتيان بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بمثل سورة واحدة منه.

ذكر التاريخ أنّ بعض الأدباء العرب، بعد سنوات طويلة على نزول القرآن الكريم، حاولوا أن يعارضوه، وهم: ابن المقفّع، وابن أبي العوجاء، وابن شاكر الديصانيّ، وعبد الملك الحضرميّ. وقد بذل هؤلاء كلّ قدراتهم وجهودهم خلال عام كامل في هذا المجال، واجتمعوا بعد مرور عام في المسجد الحرام ليتدارسوا أعمالهم وجهودهم، فظهر لهم أنّهم لم يصلوا إلى النتيجة المطلوبة، وقد ورد أنّ الإمام الصادق عليه السلام مرّ عليهم أثناء اجتماعهم، وتلا قوله

(١) سورة يونس، الآية ٣٨.

تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[١].

وعرف عن ابن المقفّع أنّه بعد مدة من اشتغاله بمعارضة القرآن مزّق ما جمع، واستحيا لنفسه من إظهاره[٢].

وسجّل لنا التاريخ بعض المهاترات، التي لا تحتاج إلى تعليق، مثل معارضة مسيلمة الكذّاب لسورة الفيل بقوله: «الفيل ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وبيل، وخرطوم طويل»[٣].

إذاً العنصر الثالث متوفِّر، بقي العنصر الأخير وهو:

٤- هل القرآن خارق للعادة؟

نعم، إنّ القرآن خارق للعادة في أمور عديدة، نتعرّض لأمرين يجمعهما عنوان: البلاغة الخارقة لمعارف عالية من إنسان أمّي.

---

(١) سورة الإسراء، الآية ٨٨.

(٢) الرافعي، مصطفى، إعجاز القرآن، ص١٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٢.

البلاغة

لقد تحدّى القرآن الكريم الناس ببلاغته، أسلوبًا، ونظمًا، وصوتَ حروف.

وقد سجّل التاريخ انشداد الناس إلى بلاغة القرآن، وإسلام العديد منهم بسبب هذا الانشداد، حتّى نُعِتَ النبيّ لأجل ذلك بالسّاحر.

ومن لطيف ما حكى التاريخ أنّ الوليد بن المغيرة المخزوميّ، الذي كان يعدّ أبلغ العرب، جاء إلى النبيّ ﷺ فقرأ ﷺ عليه القرآن، فكأنّه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه يغريه بالمال، ويدعوه إلى اتخاذ موقف سلبيّ من النبيّ محمّد ﷺ، فكان جوابه: «**فواللّه، ما فيكم رجل أعلم بالشعر منّي، ولا بِرَجْزه، ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، واللّه، ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، واللّه، إنّ لقوله حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنّه ليعلو، ولا يُعلى عليه، وإنّه ليحطم ما تحته**»[1].

---

(١) المصدر السابق، ص١٨٧.

ولتوضيح بعضٍ من هذه البلاغة أعرض الأمثلة الآتية:

أ- قال تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾[١].

إنّه تصوير لمشهد التعذيب المرعب في النار، فهي تفور، وهو مشهد يخيف العين، وهم يسمعون صوت الشهيق الذي يعني التهامهم وجذبهم إلى الأسفل، وهم بسماعهم لصوت الشهيق يصابون بالرعب الشديد، فتنخلع قلوبهم قبل أن تلتهمهم ألسنتها ويحرقهم لهيبها.

ب- قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[٢].

يصوّر اللّه تعالى الحقَّ، وهو مجرّد، بقذيفة يلقيها على الباطل الذي يصوّره بالهشّ الواهي؛ لأنّ الحق يصيبه في دماغه (فَيَدۡمَغُهُ)، فيلقيه قشة هامدة، إلا أنّ الإزهاق هو خروج الروح، والمراد بيان حتميّة انهيار الباطل، وبطلان أثره.

(١) سورة الملك، الآية ٧.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ١٨.

ج- نلاحظ أنّ الآيات الداعية إلى التأمّل والتفكير طويلة هادئة، كقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

أمّا الآيات الدالّة على العذاب والإنذار والتخويف، فهي قصيرة شديدة، كقوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾[2].

ورد أنّ جبير بن مطعم جاء النبيّ ﷺ، وهو كافر، يريد أن يُفدي أحدهم، فسمعه يقرأ ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾، فلمّا انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾، أسلم، وقال: «خشيت أن يدركني العذاب»[3].

---

(١) سورة المائدة، الآية ١٦.
(٢) سورة الطور، الآيات ١-٨.
(٣) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص٣٧.

المعارف

وقد جاءت هذه القوالب لمعارف عالية منها:

أ- مبدأ الوجود ووحدانيته وحكمته.

- ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1].
- ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].
- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[3].

ب- إرسال الله الحكيم الأنبياء، ومعهم خرائط الكمال واعظين حاكمين

- ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ...﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية١١٧.
(٢) سورة الحشر، الآية ٢٤.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٢٢.
(٤) سورة البقرة، الآية ٢١٣.

ج- مصير الإنسان والكون

- ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾[١]، مسوّغًا استغراب ذلك بقوله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾[٢].

د- تاريخ البشرية بدءًا من أوّل إنسان، مرورًا بالأنبياء والقادة والمناوئين لهم إلى عصر الظهور.

د-١- آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ

تحدّث القرآن الكريم عن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أوّل إنسان بشكل تفصيليّ من أول خلقه، وكيف خُلق وتكامل بالأسماء، وتزوّج، ودخل الجنّة، وخرج منها، ورزق أولادًا، مكوّنًا بهم المجتمع البشري الأوّل. مشدّدًا على العقبات الأساسيّة في تطوّره وتكامله، وأهمّها إبليس.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٤.

(٢) سورة الحج، الآية ٥.

(٣) سورة الأعراف، الآية١١.

د-٢- نوح عليه السلام

وتحدّث عن المجتمع البشري الثاني في سفينة نجاة بقيادة نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا احْملْ فيهَا من كُلٍّ زَوْجَيْن اثْنَيْن وَأَهْلَكَ إلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْه الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إلاَّ قَليلٌ *وَقَالَ ارْكَبُواْ فيهَا بِسْمِ الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

د- ٣- سائر الأنبياء عليهم السلام

وتحدّث عن:

- إبراهيم عليه السلام ودعوته التوحيديّة، حاكيًا رحلته الكماليّة، وما واجهه من أعدائه من شياطين الإنس والجنّ.
- موسى عليه السلام وأخيه هارون عليه السلام، وما واجهاه مع فرعون، وقصّتهما مع بني إسرائيل.

داود وسليمان وعيسى بن مريم عليه السلام، وغيرهم من الأنبياء إلى زمن محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، مشيرًا في

(١) سورة هود، الآيتان ٤٠-٤١.

عرضه هذا إلى أهميّة فهم المخطّط الإلهيّ الاختياريّ للبشريّة، ودور هؤلاء الأنبياء فيه، مبشّرًا بانتصار مسيرة الحقّ الإلهيّة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[١].

هـ- القوانين الأساسية في المجتمع الإنساني.

من قبيل:

هـ-١- الحكم بالعدل

﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾[٢].

هـ-٢- أصالة احترام الحياة

﴿... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٣].

هـ-٣-تحريم الاعتداء

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٤].

(١) سورة التوبة، الآية ٣٣.
(٢) سورة النساء، الآية ٥٨.
(٣) سورة المائدة، الآية ٣٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية ٣٣.

هـ-٤- حصر المسؤولية بالمرتكب للإثم

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[١].

هـ-٥- أصالة السلام في المجتمع البشريّ

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ...﴾[٢].

هـ-٦-تشريع الدفاع أمام الفتنة والعدوان

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[٣].

و- المسار الكماليّ للإنسان

بدءً من تزكية النفس التي قال تعالى فيها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[٤]، استمرارًا بأهمية تكوين الأسرة، والابتعاد عن الرهبانية، فقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٥].

وقد اختصر في هاتين الكلمتين قواعد الزواج الناجح.

---

(١) سورة الإسراء، الآية ١٥.
(٢) سورة الأنفال، الآية ٦١.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٩٣.
(٤) سورة الشمس، الآية ٩.
(٥) سورة الروم، الآية ٢١.

فالمودّة: هي الحبّ الذي يتجلّى بالسلوك تعبيرًا أو عملاً، والحبّ هو انجذاب القلب لما يراه المحبّ في الحبيب، وهي دعوة للنظرة إلى كمال الزوج أو الزوجة، وإلى إظهار كلّ منهما لكمالاته؛ ليتفاعلا معًا بسبب الانجذاب والحبّ.

والرحمة: هي رقّة القلب بسبب نقصٍ يراه الراحم في المرحوم، وهي دعوة إلى مقابلة نقص الزوج أو الزوجة برقّة القلب، بدلاً من الرجوع خطوة إلى الوراء.

إنّه اختصار للمنهج الصحيح في الحياة الزوجية الذي يُلاحظ جدوَلَي الإيجابيات والسلبيات، ليقابل الأول بالمودّة، والثاني بالرحمة، فتحصل السكينة في الحياة الزوجيّة[١].

ويكمل القرآن تبيان المسار؛ لأجل إيصال الناس إلى تحقيق الأهداف الكبرى من خلال ظهور الكمالات الإنسانية التي اعتبرها القرآن أساسًا للتفاضل، فليس التفاضل في منهج القرآن بين الناس قائمًا على الجنس، ولا العرق، ولا النسب، ولا المال، ولا الجاه، ولا السلطة، بل هو قائم على

(١) أنظر: كتاب: سعادة الزوجين في ٣ كلمات.

كمالات متاحة التحقّق أمام جميع الناس.

- ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[(١)].
- ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].
- ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[(٣)].

واللافت أنّ هذه المعارف المتنوّعة الراقية قد وردت متقطعة خلال ٢٣ سنة في أحوال مختلفة، وأمكنة متعدّدة، وظروف متنوّعة، ليلاً ونهارًا، حضرًا وسفرًا، حربًا وسلمًا، بدون أن يؤثّر ذلك في وجود أيّ اختلاف فيها، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[(٤)].

كما أنّ اللافت في المضامين القرآنية ما ورد فيها من إخبارات غيبيّة مستقبليّة لم تكن متحقّقة زمن نزول الآيات القرآنية، ومن تلك المضامين الغيبيّة:

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.
(٢) سورة الزمر، الآية ٩.
(٣) سورة النساء، الآية ٩٥.
(٤) سورة النساء، الآية ٨٢.

١-إخبار القرآن عن غلبة الـروم في قوله عزّ وجلّ: ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْـرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ﴾[1].

٢-إخبار القرآن برجوع النبيّ ﷺ والمسلمين آمنين إلى مكّة بعد الهجرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾[2].

لقد جذبت معارف القرآن إلى الإسلام العلماء والمفكّرين، لا سيّما أنّ مجتمع نزول القرآن كان يئد البنات، يحتقر العبيد، يتغنّى بالأنساب، يتفانى بالثأر، يتخبّط في طريقه المستقبلي، فإذا بمحمّد بن عبد اللّه يفاجئهم بهذه المعارف العالية، بتلك القوالب البلاغيّة الخارقة، ومع هذا كلّه فإنّ هذه المعارف وتلك البلاغة جاءت من إنسان أمّيّ.

---

(١) سورة الروم، الآيات ١-٥.
(٢) سورة الفتح، الآية ٢٧.

لم يشكَّ أحد منهم بأمّيّته، فهم يعرفونه جيدًا، بأنّه لم يقرأ في حياته، ولم يكتب.

وقد نصّ القرآن الكريم على أمّيّته بدون اعتراض من أحد، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[١].

فمن الواضح أنّ الآية تدل على عدم ممارسة النبيّ ﷺ قبل نزول القرآن عليه أيّة قراءة أو كتابة، مفيدًا أنّ ذلك قد ساهم في تصديق الناس نبوّته.

وقد ربط القرآن الكريم بين المعارف والبلاغة والأمّيّة.

فحينما حاول البعض أن يشير إلى أنّ بعض المعارف القرآنية أتى بها محمّد من قين[٢] روميّ، كان في مكة يصنع السيوف ويبيعها، ردّ القرآن على هؤلاء؛ رابطًا بين المعارف والبلاغة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[٣].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية ٤٨.

(٢) أي حدّاد (ابن منظور، محمّد، لسان العرب، ج١٣، ص٣٥٠).

(٣) سورة النحل، الآية ١٠٣.

كما نلاحظ الربط بين المعارف والبلاغة بأمّيّة النبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[1]، فمنَ المحتمل جدًّا كون الهاء في ﴿مِثْلِهِ﴾ راجعة إلى قوله ﴿عَبْدِنَا﴾، فتكون الآية مشيرة إلى البلاغة الصادرة عن شخص لا يقرأ، ولا يكتب، مثل النبيّ محمّد ﷺ[2].

عودٌ على بدء

إنّ ما تقدّم كان وجهًا من وجوه إثبات أنّ القرآن معجزةٌ تثبت أنّ محمّد بن عبد اللّه مبعوث ومرسل من قبل اللّه تعالى.

وهناك وجه آخر ينجذب إليه أهل هذا العصر المتطوِّر في علومه وفنونه، ألا وهو الإعجاز العلميّ في القرآن الكريم، وهو ما نتعرّف إليه في الإجابة عن السؤال الآتي.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣.

(٢) وللإجابة عن سؤال يرد على الأذهان حول الجمع اللائق بين أميّة خاتم الأنبياء وكمالاته العالية التي يقع العلمُ في رأس قائمتها، إضافة إلى دوره في تعليم الكتاب نقول: هناك فرق بين عدم معرفة القراءة والكتابة، وعدم ممارستهما، والقرآن الكريم أثبت الثانية دون الأولى، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾. ولم ينف علمه بالتلاوة والخطّ.

وكمال الإنسان هو بالعلم، وليس بقراءته وكتابته، من هنا فُسّرت أُمّيّة النبيّ ﷺ بعدم الممارسة لا بعدم العلم، بل في بعض النصوص رفضٌ لإطلاق الأميّة باعتبار القراءة والكتابة، وتوجيه لها أنّ المقصود منها نسبته إلى أمّ القرى مكّة.

3

كيف نثبت أنّ القرآن معجزة خالدة؟

(٢) الإعجاز العلميّ

قبل عرض الآيات القرآنيّة الدالّة على إعجاز القرآن الكريم، لا بدّ من الإلفات إلى أنّ القضايا العلميّة المطروحة هي على نحوين: قوانين ونظريّات.

أمّا القوانين، فهي المعادلات القطعيّة الثابتة التي لا يمكن أن يطرأ عليها أيّ تغيير، أمّا النظريّات، فهي معادلات قائمة على أسس موضوعيّة، إلاّ أنّها قابلة للتغيير والتبديل.

بناءً على ما تقدّم، فإنّه لا يصحّ أن تفسّر الآيات القرآنية بالنظريّات المطروحة، فإنّه بالإضافة إلى الخطأ المنهجيّ في ذلك، فهو قد يؤدّي إلى تزعزع الثقة بالقرآن الكريم حينما تُبدّل النظرية.

وعليه، فالإعجاز العلمي للآيات القرآنيّة يجب أن يقتصر على القوانين الثابتة، وهذا ما نتعرّض له في العناوين الآتية:

١ ـ نشوء الكون

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[١].

إنّ هذه الآية واضحة في أنّ أصل الكون كان كتلة واحدة ملتحمة، وهو معنى الرتق، ثمّ أحدث الله تعالى فيها فصلاً، وهو معنى الفتق، وهذا ما يطابق ما توصّل إليه العلماء خلال أبحاثهم، ومشاهداتهم لمظاهر الكون من أنّ المادّة كانت جامدة في أوّل الأمر في صورة غاز ساخن كثيف متماسك، وقد حدث انفجار شديد فيها، فبدأت تتمدّد وتتباعد أطرافها[٢].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

(٢) Eddington,Arthur: the Expanding universe; Astronomgx great debot, press syndicate of the university of combindge, p102.

٢. قانون الجاذبية

قـال اللّه تعالـى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾[١]. وقـد ورد عن الإمام الرضـا عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه سُـئل عن معنى الآية فأجاب: «**ثَمَّ عمد ولكن لا ترونها**»[٢]. وهذا ما اكتشفه العالم الإنكليزي نيوتن عام 1687 من قانون الجاذبية العامّة Gravittion Pull[٣].

٣. دور الجبال

قـال اللّه تعالـى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾[٤]. الأوتاد جمع وتد، وهو ما له امتداد في العمق، كالوتد الذي تُنصـب عليه الخيمة، بحيث يُغرز قسم منه داخل الأرض[٥].

وقـد ثبت علميًّا أنّ الجبال لا تقتصـر على ما يظهر على وجه الأرضـ، بل لها امتـداد عميق داخلها، وذلـك لأمرين: الأوّل:

(١) سورة الرعد، الآية ٢.
(٢) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٥٧، ص ٧٩.
(٣) Chandrasekhar .subrahmangan-Newtons principia for the common reader-oxford university perss-2003.p19.
(٤) سورة النبأ، الآيتان ٦-٧.
(٥) أنظر: ابن منظور، محمّد، لسان العرب، ج٣، ص ٤٤٤.

حفظ الجبل من الانزلاق والسقوط. والثاني: إمساك طبقات الأرض؛ بحيث يمنعها من الاضطراب والمَيَدان[١]، وهذا مؤدّى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾[٢].

٤. نقص الأوكسجين في السماء

قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾[٣].

تشير هذه الآية إلى ما أثبته العلم الحديث من أنّ الأوكسجين ينقص كلّما صعدنا نحو الأعلى، فعلى ارتفاع 3،5 أميال تصبح نسبة الأوكسجين في الهواء نصف ما هي عليه عند سطح الأرض؛ ممّا يسبّب شعور الإنسان الصاعد، بنحو ذلك العلوّ، بضيق الصدر نتيجة نقص الأوكسجين، وهبوط

---

(١) Yamatip.kaus,BJP. Moutherauf and Castelltrots Dynamic constraints on crustal scalek Giology (2011) Vol 39.n9, p 815-818.

(٢) سورة لقمان، الآية ١٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية ١٢٥.

الضغط الجوّي، فيصعب التنفّس، وقد تنفجر الحويصلات الدمويّة الموجودة في الرئتين، ممّا يؤدّي إلى الموت[١].

٥. تلقيح الرياح

قال اللّه تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾[٢]. وتشير هذه الآية إلى ما اكتشفه علماء النبات من حاجة إنتاج الشجر والنبات إلى اللقاح، وأنّ للرياح دورًا في تلقيحها[٣].

٦. بصمات الإنسان

قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾[٤]. اكتشف العلم في القرن التاسع عشر أنّ بصمات الإنسان في بنانه من أعقد ما فيه، وهذا ما نتج منه اتخاذها أداة للكشف عن هويّة الأشخاص، والتمييز بينهم[٥].

---

(١) Frisancho A.R:Humain Adaptation and Accomodation, University of Michigan.p175.

(٢) سورة الحجر، الآية ٢٢.

(٣) A.VI.Shuvila M.R. VIgaraghavan- Abiotic pollination- biology of pollen APH publishing.P67-69

(٤) سورة القيامة، الآيتان ٣-٤.

(٥) FBI,Finger peint Recongnition, National Science and Technology Council NSTC, page100.

(٣) الإعجاز العدديّ

إضافة إلى الإعجاز البلاغيّ والعلميّ للقرآن الكريم طرح الإعجاز العددي، وهذا ما نتعرّض له باختصار:

١- المقابلات الرقميّة اللافتة

نعرض فيما يأتي جدولاً فيه كلمات تكرَّرت في القرآن الكريم لمرّات لافتة في انسجام مدهش مع أمور أخرى:

الكلمة	العدد	الكلمة	العدد
اليوم	٣٦٥ مرّة عدد أيام السنة	الشهر	١٢ مرّة عدد أشهر السنة
الدنيا	١١٥ مرّة	الآخرة	١١٥ مرّة
الحياة	١٤٥ مرّة	الموت	١٤٥ مرّة
الرجل	٢٤ مرّة	المرأة	٢٤ مرّة
إبليس	١١ مرّة	صيغ الاستعاذة	١١ مرّة
الملائكة	٨٨ مرّة	الشياطين	٨٨ مرّة
النفع	٥٠ مرّة	الفساد	٥٠ مرّة

لبث أهل الكهف في كهفهم	٣٠٩ سنوات	وتحدث اللّه عن قصتهم	٣٠٩ كلمات

٢- الأعداد اللافتة

من قبيل العدد ١٩ الذي استوحاه من تتبّعه في القرآن من قوله تعالى: « عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ»[١].

ومن هذه الأعداد الدائرة حول رقم ١٩ ما يأتي:

الكلمة	العدد	الكلمة	العدد
حروف بسم اللّه الرحمن الرحيم	١٩ حرفًا		
كلمات آية التحدي ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾	١٩ كلمة	حروف الأبجدية التي تركّبت منها هذه الآية	١٩ حرفًا

(١) سورة المدثر، الآية ٣٠.

حرف القاف في سورة ق	٥٧: من مضاعفات الرقم ١٩: (١٩ × ٣ = ٥٧)	حروف القاف في سورة الشورى	٥٧: من مضاعفات الرقم ١٩: (١٩ × ٣ = ٥٧)
حروف الياء والسين في سورة يس	٢٨٥: من مضاعفات الرقم ١٩: (١٩ × ٣ = ٥٧)		

4

هل سَلِمَ القرآن من التحريف؟

إنّ طرح هذا السؤال يقع في السياق الطبيعي لمن ثبت عنده أنّ القرآن هو معجزة، وبالتالي هو كتاب اللّه وكلمته، وعليه فلا بدّ من التأكّد من صيانة القرآن من التحريف بسبب الأهميّة البالغة المترتّبة على اعتماد آياته.

معنى التحريف

للتحريف معنيان أساسيّان:

١- **التحريف المعنويّ:** أي أن يُفسَّر القرآن بغير المعاني المرادة، وبالتأكيد، فإنّ السؤال السابق لا يطال هذا النوع من التحريف الذي لا يضرُّ وقوعه في كون القرآن معجزة، كتفسير الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن يدَي

اللّٰه، ووجهه، وعينه، والساق[١]، بما يؤدّي إلى تجسيم اللّٰه تعالى.

٢- التحريف اللفظيّ: وله عدّة معانٍ، ما يهمُّنا منها في ما يتعلّق بالسؤال السابق معنيان:

الأوّل: التحريف بالزيادة؛ بمعنى أنّ بعض المصحف الذي بين أيدينا ليس من الكلام المنزل من اللّٰه تعالى.

الثاني: التحريف بالنقيصة؛ بمعنى أنّ المصحف الذي بين أيدينا لا يشتمل على جميع القرآن المنزل من اللّٰه تعالى.

فما الدليل على عدم تحريف القرآن بهذين المعنيين؟

الدليل على عدم تحريف القرآن بالزيادة

إنّ الدليل على عدم تحريف القرآن الكريم من ناحية الزيادة هو تواتر نقله من زمن رسول اللّٰه إلى عصرنا الحالي بما يولِّد القطع بعدم حصول زيادة.

(١) أنظر بركات، أكرم، يسألونك عن اللّٰه، ط١، بيروت، بيت السراج، ١٤٣٣ هـ، ص ١٢-١٨.

ومعنى التواتر: **«خبر جماعة كثيرين يستحيل عادةً تعمّدهم الكذب، وخطؤهم في فهم الحادثة، ويحصل بإخبارهم العلم»**[١].

وتواتر القرآن الكريم هو في درجة عالية بسبب اهتمام رسول اللّه ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام والصحابة الكرام (رض) بالقرآن الكريم كتابةً، وحفظًا، وضبطًا، وما يؤكّد على هذا الأمر أنّه في معركة اليمامة في عهد النبيّ محمّد ﷺ قتل سبعون حافظًا للقرآن الكريم، وقيل أربعماية من حفّاظه.

إضافةً إلى التواتر، فإنّ الزيادة في القرآن إن كانت بسورة كاملة، فإنّ معناه إمكان بل وقوع الإتيان بسورة كسور القرآن الكريم، وإن كان بزيادة بعض الكلمات، أو المطالب في داخل السور، فإنّه يؤدّي إلى اضطراب السبك ونظام الكلام، وكلا الأمرين مخالف للإعجاز البلاغيّ في القرآن الكريم.

---

(١) بركات، أكرم، دروس في علم الدراية، ط٢، بيروت، دار الصفوة، ٢٠٠٩، ص٣٤.

الدليل على عدم تحريف القرآن بالنقيصة

بعد أن أثبتنا عدم وجود زيادة في القرآن الكريم يمكن لنا أن نستدلّ بالآيات القرآنيّة نفسها على عدم وجود أيّ نقيصة فيه.

أدلّة القرآن على عدم الزيادة

١- قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١].

إنّ هذه الآية تدلّ على تدخّل إلهيّ خاصّ لحفظ القرآن الكريم، كما حصل في تنزيله، وإنّ هذا الحفظ هو في الحاضر والمستقبل بقرينة ﴿حَافِظُونَ﴾ التي هي اسم فاعل يدلّ على زمن الحاضر والمستقبل.

وقد أكّد القرآن الكريم على حفظه من اللّه تعالى بمؤكِّدات لفظيّة، فاستخدم «إنّ» التي هي حرفُ تأكيد، كما أضاف إليها لام التأكيد قبل «حافظون»، وما ذلك إلا لمزيد العناية بتأكيد هذا الحفظ.

المراد من الذكر

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

ولا يخفى أنّ المراد من كلمة ﴿الذِّكْرَ﴾ في هذه الآية هو القرآن الكريم؛ بقرينة ما سبق هذه الآية، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(١)، فمن الواضح أنّ المراد من الذكر الذي أنزل على النبيّ ﷺ هو القرآن الكريم.

ونحن نؤكّد على هذا المعنى، حتّى لا يتوهّم البعض بأنّ المراد من الذكر هو رسول اللّه ﷺ نفسه الذي أُطلق عليه في القرآن أنّه «ذكر» في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٣)، فالآية تدلّ على نفي الباطل عن القرآن الكريم؛ باعتباره مسوّرًا بحصنٍ آمنٍ، ولا شكّ أنّ التحريف هو من الباطل الذي حُصِّن منه القرآن.

(١) سورة الحجر، الآية ٦.
(٢) سورة الطلاق، الآيتان ١٠-١١.
(٣) سورة فصلت، الآيتان ٤١-٤٢.

أدلّة السُنّة النبويّة على حفظ القرآن

باعتبار ما ثبت من عدم وجود زيادة في القرآن الكريم، فإنّه يمكن أن نتمسّك بالآيات التي تعطي حجيّة واضحة ثابتة لكلام رسول اللّه ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[١]، إضافة إلى ثبوت عصمته التي نتحدّث عنها لاحقًا.

وعليه يمكن الاستدلال على عدم وقوع التحريف في القرآن الكريم في النقيصة، فضلاً عن الزيادة بـ:

أ- الحديث المتواتر عن النبيّ ﷺ: «إنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، ما إنْ تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي»[٢].

فالأمر بالتمسّك بالكتاب، وكون من تمسّك به لا يضلّ أبدًا، يفيدان أنّه مصان من التحريف، فإنّ تأبيد نفي الضلالة في المستقبل كلّه لمن تمسّك بالكتاب يفيد بشكل واضح أنّه لن يحرّف في كلّ الزمن الآتي.

(١) سورة الحشر، الآية ٧.
(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج١، ص٢.

ب- ما ورد عن النبيّ ﷺ، وأكّده أئمة أهل البيت عليهم السلام، بجعل القرآن الكريم الميزان والمعيار لمعرفة مدى صحّة الأحاديث، كما في الحديث النبويّ: «**تكثر الأحاديث لكم بعدي، فإذا رُويَ لكم عني حديث، فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فاقبلوه واعلموا أنّه منّي، وما خالفه فردّوه**»[1].

فكيف يصحّ جعل القرآن ميزانًا لمعرفة الأحاديث الصادقة من الكاذبة في كلِّ الأزمان مع كونه قد حُرِّف؟!.

معنى حفظ القرآن من التحريف

بعد أن ثبت كون القرآن يمتاز من بقيّة الكتب السماويّة، كما غيرها، بوساطة التدخّل الإلهيّ لحفظه، يأتي السؤال حول معنى هذا الحفظ الإلهيّ:

فهل يعني بأنّ أحدًا لا يمكن له أن يطبع القرآن محرَّفًا؛ بمعنى أنّه إذا أراد أن يفعل ذلك فإنّ الله تعالى يتدخّل ويشلّ يده؟!

بالتأكيد ليس الأمر كذلك.

---

(١) السرخسيّ، أصول السرخسيّ، ج١، ص٣٦٥.

إنّ حفظ القرآن الإلهيّ لا يخرج عن المسار الاختياريّ الذي رسمه اللّه تعالى للإنسان.

إذًا، ما معنى حفظ اللّه تعالى للقرآن من التحريف؟

إنّ هذا الحفظ الإلهيّ تجلّى بصياغة القرآن صياغة إعجازيّة ينتفي الداعي معها للتحريف من قبل أيّ اتجاه، أو مذهب من المذاهب، والاتجاهات الإسلاميّة، ومع ضمان عدم تحريفه في المجتمع الإسلامي من قِبَل المسلمين، ومعه ينتفي التحريف من غيرهم.

وتوضيح ذلك: أنّ المتعمّق في آيات القرآن الكريم التي يمكن أن تكون مسارًا للاختلاف السلبيّ، يُلاحظ أنّها لم تكتب بصور زجاجيّة؛ بمعنى أنّها إمّا أن يُفهم منها معنى محدّد، أو تكسر ولا تكون، بل كُتِبَ على أساسين:

الأول: إمكان توجيهها إلى أكثر من معنى بحسب الاتجاهات المتعدّدة، بغضّ النظر عن صحّة التوجيه.

الثاني: أنّه مع إمكان ذلك التوجيه، إلاّ أنّ من أراد الحقّ فإنّ القرآن الكريم يوصله إليه.

مثال

ولتوضيح الفكرة، فلنتأمّل الآيات التي اختلف في كون مورد نزولها هو الإمام عليّ عليه السلام وسائر أهل البيت عليهم السلام، أو في دلالاتها على موقعهم الخاصّ عند اللّه تعالى، فإنّها لم يرد فيها الاسم بوضوح، فلم يقل اللّه تعالى: «**إنّما وليّكم اللّه ورسوله وعليّ**»، ولم يقل اللّه تعالى: «**يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك في ولاية عليّ...**»، ولم يقل عزّ وجلّ: «**إنّما يريد اللّه ليذهب عن علي وفاطمة والحسن والحسين الرجس**».

ولو كان اللّه تعالى قد ذكر ذلك بالتفصيل لما كان مستغربًا أن يحرّف القرآن، وتحذف منه تلك الأسماء، إذ كيف يتحمّل من أمر بلعن الإمام عليّ عليه السلام على منابر المسلمين عشرات السنين أن يكون اسم عليّ عليه السلام في تلك الآيات.

من هنا كانت صيانة القرآن مختلفة، إذ قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[1].

(١) سورة المائدة، الآية ٥٥.

إنّ المتأمّل في هذه الآية يدرك أنّ المراد منه شخص محدّد، وليس الحديث عن قضيّة عامّة؛ لأنّه لم تجر العادة أن يؤتي المسلم زكاته وهو راكع، وهذا ما يؤكّد أنّ نزول الآية كان بعد تصدُّق الإمام عليّ عليه السلام بخاتمه على الفقير.

ولكن مع ذلك، فإنّ البعض فسّر هذه الآية بأنّ المراد من الراكعين الخاشعون.

وهكذا فإنّ من يقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[1]، فإنّه يجد فيها تأكيدًا على مسألةٍ في غاية الأهميّة تتعلّق بأصل الرسالة، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان لديه حذر من تبليغها لما قد تُحدث من تداعيات سلبيّة بعد التبليغ، وهذا الأمر ينسجم مع ما أكّد كون مورد نزولها هو إعلان ولاية الإمام عليّ عليه السلام في الغدير.

ولكن مع ذلك فإنّ البعض حملها على تبليغ ما تبقّى من آيات قرآنية.

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.

وهكذا بالنسبة لآية التطهير التي يُلاحظ المتتبّع لها، وللآيات السابقة عليها، كيف أنّ اللّه تعالى غيّر ضمير المؤنّث بضمير المذكّر.

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وهذا له دلالة على أنّ المراد في آية التطهير ليس نساء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، بل آخرون فيهم ذكور على الحدّ الأقلّ، ولكن مع ذلك فإنّ البعض استفاد من وجود آية التطهير ضمن آيات نساء النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ليتحدّث عن مورد نزول آخر.

إنّ هذه أمثلة عمليّة على صيانة القرآن الكريم بحيث يظهر الحقّ فيه، ويتحمّله الآخرون.

(١) سورة الأحزاب، الآية ٣٣.

5

لِمَ ادّعى البعض تحريف القرآن؟ وما هو الردّ عليه؟

رغم الأدلّة الواضحة التي مرّت على عدم تحريف القرآن بالزيادة والنقيصة، فقد ادّعى بعض من شذّ من أهل السنّة والشيعة أنّ القرآن الكريم قد نقص منه بعض الآيات القرآنيّة.

وسبب ذلك يعود إلى وجود روايات في كتب المسلمين سنّةً وشيعةً قد فُهِم منها أنّ القرآن قد نقص منه بعض ما أنزله اللّه تعالى.

فقد خرج من بين علماء أهل السنّة ابن الخطيب محمّد محمّد عبد الخطيب، وهو من علماء مصر، وألّف كتابًا في

تحريف القرآن سمّاه «**الفرقان**»، وذلك سنة ١٩٤٨م، وقد حشاه بالروايات التي فُهم منها تحريف القرآن الكريم ناقلاً لها عن المصادر المعروفة عند أهل السُنّة. وكذا خرج من بين علماء الشيعة المحدّث النوريّ، وألّف كتابًا سمّاه «**فصل الخطاب**» يشابه كتاب ابن الخطيب.

وقد هبّ علماء الأزهر، واتخذوا موقفًا حازمًا من كتاب الفرقان، كما هبّ علماء الشيعة بحزم شديد ضدّ كتاب «**فصل الخطاب**» ومؤلّفه، وقد وصف السيّد هبة اللّه الشهرستاني مدينة النجف الأشرف، حين صدور هذا الكتاب، بأنّها كانت تموج ثائرةً على نزيلها المحدّث النوري بشأن تأليفه كتاب (فصل الخطاب)، قال: «**فلا ندخل مجلسًا في الحوزة العلميّة إلّا ونسمع الضجّة والعجّة ضدّ الكتاب، ومؤلّفه، وناشره، يسلقونه بألسنة حداد**»[١].

وقد تأثّر هذان العالمان بجملة من الروايات الموجودة

---

(١) معرفة، محمّد هادي، صيانة القرآن من التحريف، تحقيق ونشر مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ص١١٥.

في كتبٍ منسوبة إلى المذهبين، من دون توجيهها وحملها على محمل يتواءم مع التنزيه.

ولأجل توضيح هذا، أعرض جملة من روايات التحريف في كتب أهل السُنّة، ثم ألحقها بجملة من روايات التحريف في كتب الشيعة، لكن قبل ذلك أرى من الضروريّ توضيح قاعدة أساسيّة في المنهجيّة المعتمدة في الفكر الشيعيّ.

الموقف من النصّ أمام العقل القطعيّ

ذكرتُ في كتاب «**يسألونك عن اللّه**» أنّ الشيعة يعتقدون أنّ العقل الإنساني يمكن له أن يدرك حسن الأشياء وقبحها، كما مرّ - أيضًا- في ذلك الكتاب أنّ العقل القطعي هو الذي دلّنا على وجود اللّه تعالى، وعلى صفاته التي من ضمنها الحكمة، وعلى أساس الاعتقاد بكون اللّه تعالى حكيمًا، أثار العقل سؤالاً حول الهدف من خلق الإنسان، وقد قادنا هذا السؤال في هذا الكتاب إلى البحث عن الرسول الإلهيّ، وبالتالي أدّى إلى الإيمان بنصّ القرآن الكريم باعتباره المعجزة الخالدة.

إذًا، العقل القطعيّ هو الذي أوصلنا إلى النصّ القرآنيّ.

كما أشرنا سابقًا إلى أنّ الآيات القرآنية أعطت الحجّية لأقوال رسول اللّهﷺ من خلال أمرنا بالرجوع إليه، ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[١]، هذا إضافة إلى ما يأتي من دلالة العقل القطعي على عصمة الرسول الأكرمﷺ، ممّا يؤدّي إلى الاعتقاد بصدق أقواله، وكونها بابًا للواقع.

والنتيجة أنّ العقل القطعيّ هو المعتمد الأساس للإيمان بالنصّ القرآنيّ، والنصّ النبويّ.

وهنا ينبغي ملاحظة أنّ النصّ القرآنيّ هو نصّ قطعيّ على مستوى السند، كما ثبت سابقًا، إلاّ أنّ الأمر ليس كذلك دائمًا في دلالة النصّ الذي لا بدّ أن يدرس جيدًا؛ لتحديد معناه المراد، وفي حال تعارضت دلالة النصّ القرآنيّ كما قد يُفهم منه، مع دليل العقل القطعيّ، فلا بدّ من تفسير ذلك النصّ القرآنيّ بما يتواءم مع العقل القطعيّ، كما حصل ذلك

(١) سورة الحشر، الآية ٧.

في توجيه الآيات التي قد فُهم منها أنّ للّه جسمًا، كالآيات الحاكية عن يدَي اللّه، ووجهه، وعينه، والساق، والعرش، والكرسيّ، فقد فسّرنا هذه المفردات بعيدة عن الجسمية بما يتواءم مع اعتقادنا القطعيّ بكون اللّه تعالى لا جسم له.

أمّا النصّ النبويّ فإنّ أغلب الروايات الواردة على أنّها حاكية عن هذا النصّ هي غير قطعيّة السند، وكذلك هي غير قطعيّة من ناحية الدلالة.

لذا حينما تتعارض الرواية غير القطعيّة مع العقل القطعيّ، فإنّنا لا بدّ أن نؤوّل الرواية بما ينسجم مع ذلك الدليل العقليّ القطعيّ، وفي حال عدم إمكانيّة تأويلها، فإنّ مصيرها سيكون الرفض، ومن باب الأدب نردُّها إلى أهلها، لأنّنا قد نكون قاصرين عن فهمها، إلاّ أنّ احتمال هذا القصور لا يسوِّغ اعتمادها طالما هي متعارضة مع الدليل العقليّ القطعيّ.

وكذلك فإنّ الروايات الواردة حينما تتعارض مع الوضوح القرآني، فإنّنا لا بدّ من توجيهها بما يتواءم مع ذلك الوضوح، وإلاّ فإنّ الوضوح القرآنيّ هو المقدَّم.

تطبيق المنهجيّة على روايات تحريف القرآن.

بناءً على ما تقدّم، فإنّ الدليل العقليّ القطعيّ قادنا إلى عدم تحريف القرآن بالزيادة، وهذا ما أدّى إلى الاعتقاد القطعيّ بالآيات القرآنيّة العقليّة التي دلّ بعضها بوضوح على عدم تحريف القرآن الكريم، وعليه، فإنّ ما قد يُفهم من روايات مرويّة من تحريف القرآن الكريم لا بدّ من تأويله بما ينسجم مع الآيات التي تنزّه القرآن عن التحريف، وإن لم يمكن تأويل ذلك، فإنّ مصير هذه الروايات سيكون الرفض وعدم القبول بها.

بعد هذا التوضيح للمنهجيّة التي نعتمدها في تعارض النصّ مع العقل القطعيّ، نطلّ على جملة من الروايات الواردة في كتب أهل السُنّة والشيعة حول تحريف القرآن الكريم.

روايات التحريف عند أهل السُنّة

ورد في كتب أهل السُنّة روايات عديدة تفيد وجود مصاحف لبعض زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وبعض الصحابة، فيها زيادات عن القرآن الموجود بين أيدينا، إضافةً إلى روايات أخرى تفيد

نقص القرآن الفعليّ لبعض الآيات أو الكلمات، ممّا أوهم البعض أنّ القرآن قد حُرّف بالنقيصة، ومن تلك الروايات:

١- مصحف عائشة

نقل السجستاني في كتابه **«المصاحف»** عن ابن أبي حميد قال: أخبرتني حميدة: **«أوصت لنا عائشة بمتاعها، فكان في مصحفها «إنّ الله وملائكته يُصلّون على النبيّ والذين يصلّون في الصفوف الأولى»** وقالت: **«قبل أن يغيِّر عثمان المصاحف»**. كما ورد أنّه قد كُتب في مصحف عائشة **«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر»**[(١)].

٢- مصحف حفصة

ورد في بعض كتب أهل السُنّة أن زوجة النبيّ ﷺ حفصة وافقت عائشة وكتبت بيدها **«وصلاة العصر»** بعد قوله تعالى **«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى»**[(٢)].

---

(١) الصنعانيّ، المصنّف، تحقيق الأعظمي، ط٢، المجلس العلمي، ١٤١٣هـ، ج١، ص٥٨٧. أنظر بركات، أكرم، حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة، ص ١١٨.

(٢) الصنعانيّ، المصنف، ج١، ص٥٧٨.

٣- مصحف أمّ سلمة

نسبت بعض كتب أهل السُّنة إلى زوجة النبيّ أم سلمة أنّها كانت، أيضًا، تأمر أن يكتب في مصحفها بعد الصلاة الوسطى: «وصلاة العصر»[١].

٤- مصحف عبد اللّه بن مسعود

نقل السيوطي، بسند اعتبره صحيحًا، خبرًا هو أنّ الصحابي ابن مسعود كان يرى أنّ المعوّذتين ليستا من القرآن، لذا كان يحكّهما من المصحف[٢].

٥- مصحف أُبيّ بن كعب

ذكر السجستاني أنّ مصحف أُبيّ بن كعب كان فيه سورتان ليستا الآن موجودتين في قرآننا، وقد ذكر السيوطي هاتين السورتين وهما:

(بسم اللّه الرحمن الرحيم، اللهمّ إنّا نستعينك،

(١) المصدر السابق، ص٥٧٩.
(٢) السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور، (لا،ط)، بيروت، دار المعرفة، (لا،ت)، ج٦، ص٤١٦.

ونستغفرك، ونثني عليك، ولا نكفرك، ونخلع، ونترك من يفجرك).

(اللهمّ إيّاك نعبد، ولك نصلّي، وإليك نسجد ونحفد، نرجو رحمتك، ونخشى نقمتك، إنّ عذابك بالكافرين ملحق)[١].

٦- آية الرجم

نقلت عدّة كتب لأهل السُّنّة أنّ عمر بن الخطاب كان يصرّ على وجود آية الرجم في القرآن، وهي: «**الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة**»، وكان عمر يقول: «**لولا أن يقول الناس: إنّ عمر زاد في كتاب الله، لكتبت آية الرجم بيدي**»[٢].

٧- آية ولاية عليّ

ذكر السيوطي في الدرّ المنثور عن ابن مسعود قوله: «**كنا**

(١) السيوطي، جلال الدين، الإتقان، بيروت، دار الفكر، ج١، ص٦٧.

(٢) ابن حنبل، احمد، مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص٢٣.

ابن انس، مالك، الموطأ، تحقيق الباقي، بيروت، دار إحياء الكتب العربية، ج٢، ٨٢٤.

نقرأ على عهد رسول الله ﷺ «يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك [أنّ عليًا] مولى المؤمنين وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته، والله يعصمك من الناس»[١].

٨- «القرآن: ١٠٢٧٠٠٠ حرف

روى الطبرانيّ بإسناده عن عمر بن الخطاب أنّه قال: **«القرآن ألف ألف حرف وسبعة وعشرون ألف حرف، فمن قرأه صابرًا محتسبًا كان له بكل حرف زوجة من الحور العين»**[٢].

في حين أنّ حروف القرآن الواقعية، وهو المأثور عن ابن عباس هي ٣٢٣٦٧١ حرفًا.

الردّ

ما أسّسناه من منهجيّة سابقة تقتضي توجيه الروايات التي يمكن توجيهها إلى معنى آخر يتواءم مع تنزيه القرآن الكريم، وعدم تحريفه، وإلاّ فإنّ مصيرها هو الرفض.

(١) السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور، ج٢، ص ٢٩٨.
(٢) السيوطي، جلال الدين، الإتقان، ج٢، ص٢٥.

بناءً عليه، نحمل البعض منها على إرادة بيان مورد نزول الآية، كالرواية الواردة عن ابن مسعود (بلِّغ ما أنزل إليك من ربك [أنّ عليّاً] مولى المؤمنين)، لا أنّه يراد كون هذه الألفاظ جزءًا من القرآن الكريم، وقد حُذِفت.

ونحمل البعض الآخر منها على إرادة الدعاء، كالرواية الواردة حول مصحف أبيّ بن كعب، فلعلّ المقطعين السابقين لا يراد أنّهما سورتان، بل كان أُبيّ قد كتبهما في مصفحه كدعاء يدعى به اللّه تعالى، فاختلط الأمر على بعض الناس.

أمّا الروايات التي لا تتحمّل معنى يتواءم مع عصمة القرآن من التحريف، فإنّنا نرفضها كما ذكرنا.

روايات التحريف في كُتب الشيعة

ورد في كتب الشيعة بعض الروايات التي يمكن حملها على مورد النزول، كتلك الرواية الشبيهة برواية ابن مسعود المتقدّمة، وهي أنّ آية التبليغ كانت تقرأ هكذا: «**يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك [في عليّ]**»[1].

(١) الطباطبائي، محمّد حسين، تفسير الميزان، ج١٢، ص١١٢.

وما يؤكّد صحّة هذا الحمل هو ما ورد في صحيحة أبي بصير: سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1]. قال عليه السلام: «نزلت في عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين، فقلت له: إنّ الناس يقولون: فما له لم يسمِّ عليًّا وأهل بيته في كتاب اللّه، قال عليه السلام: «قولوا لهم: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم نزلت عليه الصلاة، ولم يسمِّ اللّه لهم ثلاثًا ولا أربعًا، حتّى كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي فسّر ذلك لهم»[2].

وهكذا فإنّنا نحمل ما ورد عن الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، وهو قوله عليه السلام: «**إنّما أنتم من طواغيت الأمّة، وشذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام، ومحرِّفي الكتاب**»[3]، على التحريف المعنويّ لا التحريف اللفظيّ، وقد ذكرنا في بداية هذه الإجابة أنّ التحريف المعنويّ قد وقع في القرآن الكريم من دون أن يكون له أيّ أثر على إعجازه.

(١) سورة النساء، الآية ٥٩.

(٢) الكليني، محمّد، الكافي، ج١، ص٢٨٦.

(٣) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٤٥، ص ٨.

6

هل يكفي القرآن وحده لبيان طريق الكمال الإنسانيّ؟

عرفنا ممّا سبق أنّ الكفيل ببيان طريق كمال الإنسان، في عصرنا هذا، هو القرآن الكريم. لكن يبقى السؤال: هل يعني هذا أنّ المؤمن من خلال مجرَّد إطلاعه على آيات القرآن يتمكّن من معرفة الطريق التي تؤدّي به إلى الكمال؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ الدور الأساس للقرآن الكريم هو الإضاءة على طريق الكمال والهداية إليها، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1]، إلاّ أنّ كونه كذلك لا يعني أنّه بنفسه يذكر البرنامج التفصيليّ لعبور طريق الهداية، إذ يمكن أن تتحقّق تلك الإضاءة والهداية

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢.

من خلال إرشاده ودلالته إلى مصدرٍ يحوي برنامج الكمال الإنسانيّ كلِّه.

وهذا ما حصل فعلاً، فالقرآن الكريم في آيات الأحكام الواردة فيه، والتي لا تتجاوز بضع مئات، بيَّن عمومات أساسيّة من ذلك البرنامج، وبعضًا من تفصيله، أمّا بقيّة البرنامج فقد أرشد القرآن إلى أخْذها من الرسول الأكرم محمّد ﷺ بقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1].

وعليه يصحّ القول: إنّ برنامج هداية الإنسان إلى طريق الكمال هو: القرآن الكريم + الرسول محمّد ﷺ.

عصمة النبيّ ﷺ في التبليغ

بناءً على ما تقدّم يطرح سؤال هو: من الواضح أنّه يصحّ لنا الاعتماد على القرآن الكريم لمعرفة طريق كمالنا؛ لأنّه كلام اللّه، فهو منزّه لا يشوبه خطأ، فهل حال ما يصدر عن النبيّ محمّد ﷺ في بيان طريق الكمال هو حال القرآن الكريم في نزاهته عن الخطأ؟

---

(١) سورة الحشر، الآية ٧.

الجواب: إنّ العقل الإنسانيّ يحكم بوضوح أنّ النبيّ محمّدًا ﷺ هو معصوم عن أيّ خطأ في تلقّي وبيان طريق الكمال للناس؛ لأنّ هذا الأمر يرتبط بهدف خلق اللّه للإنسان، الذي هو سيره في طريق كماله، فقد تقدّم أنّ اللّه الحكيم يحبّ منه أن يبيِّن طريق الكمال هذه، فإذا كان القرآن وحده لا يكفي لبيان تفاصيل برنامج الكمال، كان لا بدّ من ضمّ أمر آخر إليه لبيان ذلك، وهو ما يصدر عن النبيّ ﷺ، وبناءً عليه يجب من اللّه تعالى أن يعصم النبيّ ﷺ من الخطأ في هذا التبليغ لطريق الكمال تلقّيًا وتبليغًا، وإلاّ لحصل خلل من الهدف الإلهيّ من خلق الإنسان.

وقد بيَّن اللّه تعالى أنّه حصَّن الأنبياء في تبليغهم للرسالات الإلهيّة، بقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا × إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[١].

(١) سورة الجنّ، الآيات ٢٦-٢٨.

والدليل السابق يختزن محتوًى لا يقتصر على أقوال النبيّ ﷺ فحسب، بل يشمل أمرين آخرين، هما: أفعاله، وتقريره.

عصمة النبيّ ﷺ في أفعاله

إذا قام النبيّ ﷺ بعمل ما، فهل يمكن احتمال كون ما يقوم به حرامًا يعاكس السير في طريق الكمال؟

إنّ ما تقدَّم يحسم النتيجة بكون ذلك الاحتمال غير وارد أصلاً؛ وذلك لأنّ النبيّ ﷺ، بحسب ما ثبت، هو منتخب ومختار من اللّه تعالى؛ لبيان الرسالة التي هي خريطة عبور الإنسان إلى كماله، وهو متصل به اتصالاً خاصًّا، أمكنه من خلاله أن يتلقّى كلمات اللّه تعالى، ليبلّغها للناس، وليكمل تبليغ خريطة الكمال بوساطة تبليغه الخاصّ، فهو يأمر الناس، وينهاهم ويرشدهم إلى طريق الصواب ليتّبعوه، ويزجرهم على اتّباع طريق الخطأ، وهذا ما يجعله في موقع القدوة الأولى للناس.

فلنتصوّر أنّ النبيّ ﷺ في هذا الموقع يرتكب حرامًا، ألا يخلُّ هذا بالهدف الإلهيّ، وهو هداية الناس إلى طريق كمالهم؟

بالتأكيد سيضرّ بالهدف، وهذا يعني أنّه لا بدّ أن يكون النبيّ ﷺ معصومًا عن فعل الحرام، فإذا قام بأيّ فعل، فهو بالتأكيد في دائرة الحلال، وعليه فيمكن لنا أن نستفيد من أفعال النبيّ حكمًا شرعيًّا أنّها ليست حرامًا، وهذا هو الحدّ الأدنى الذي يُستفاد من أفعال النبيّ ﷺ.

عصمة النبيّ ﷺ في تقريره

إذا قام أحد الناس بفعلٍ أمام النبيّ محمّد ﷺ، ولم يقم النبيّ ﷺ بأيّ ردّ فعل سلبيّ، وهو قادر على ذلك بدون أيّ مانع، فإنّ ذلك يعني أنّ هذا الفعل ليس بحرام؛ لأنّه إن كان حرامًا، ولم ينهَ عنه الرسول، سيفهم الناس أنّه ليس كذلك، ومن الطبيعيّ أن يتناقل الناس هذا الحدث باعتبار الفعل حلالاً، وهذا يناقض دور النبيّ ﷺ في بيان طريق الكمال الإنسانيّ، وبالتالي سيضرّ بالهدف من إرسال الرسول ﷺ الذي يرتبط بالهدف من خلق الناس كما تقدَّم.

إنّ هذا يعني أنّ تقرير النبيّ ، أي سكوته، وعدم تدخّله عن فعلٍ حصل بحضوره والتفاته، ولم يكن مانع من تدخّله،

يدلّ على أنّ هذا الفعل ليس حرامًا.

ممّا تقدّم نفهم أنّنا نستطيع استفادة خريطة الكمال الإنسانيّ، إضافة إلى القرآن الكريم، من أقوال النبيّ ﷺ، وأفعاله، وتقريره، وهو ما يصطلح عليه السُّنّة النبويّة.

السُّنّة النبويّة =
أقوال النبيّ ﷺ + أفعاله
+ تقريره

وهذا الأمر يزيد من أهميّة معرفة سيرة الرسول الأكرم ﷺ؛ باعتبارها مصدرًا تشريعيًّا لمعرفة الأحكام الإلهيّة.

الخلاصة: إنّ الدالّ على طريق الكمال الإنسانيّ في رسالة الإسلام هو:

القرآن الكريم
+ السُّنّة النبويّة

من يحفظ السُّنَّة النبويّة؟

تقدّم أنّ اللّه تعالى حفظ القرآن الكريم من أيّ تحريف؛ من خلال الطريقة التي بيّنّاها سابقًا، حتّى بات القرآن الكريم نفسه بدون زيادة ولا نقصان عند جميع المسلمين بمختلف مذاهبهم واتجاهاتهم.

لكنَّ هذا الأمر لم يحصل في السُّنَّة النبويّة بالطريقة نفسها؛ إذ نجد اختلافًا بين المسلمين في نقل هذه السنَّة، حتّى في أمور كثر تكرارها في حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، كالصلاة، فهي رغم أنّها حافظت على عدد ركعاتها، وعلى شكلها العامّ عند جميع المسلمين، إلاّ أنّها كانت موضع اختلاف في بعض التفاصيل، كحال وضع اليدين أثناء القيام، وهكذا الحال بالنسبة إلى الوضوء، إضافةً إلى مفردات أخرى.

وهناك يأتي السؤال بشأن الطريقة التي لا بدَّ من أن يكون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بوحي من اللّه تعالى، قد اعتمدها لحفظ هذه السنَّة، ليمكن التوصّل إليها، على الأقل، من قبل من يعتمد تلك الطريقة.

ويظهر الجواب من حديثٍ نبويٍّ متواتر عند المسلمين، يقول فيه ﷺ: «**إنّي تارك فيكم الثقلين، كتاب الله، وعترتي (أهل بيتي)، فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض**»[١].

وهذا الحديث، باعتباره متواترًا هو سُنّة، وهو يفيد أنّ أهل البيت عليهم السلام يشكّلون المرجعيّة الدينيّة التي تعصم من تمسّك بها مع القرآن الكريم من الضلالة، ولا يكون ذلك إلاّ من خلال كونهم الحفظة للسُّنَّة النبويّة المطهّرة، حفظًا لا يدخله ضلال.

وهذا يعني أنّ أحاديث أهل البيت عليهم السلام هي بيان للسُّنَّة النبويّة، وبالتالي لطريق كمال الإنسان، فهم في بياناتهم الشرعيّة يمثّلون النبيّ ﷺ في إيضاح طريق الكمال، وهذا ما عنوه بقولهم الصادر عنهم، «**أوّلنا محمّد، وأوسطنا محمّد، وكلّنا محمّد**»[٢].

---

(١) الصدوق، محمّد، كمال الدين وتمام النعمة، تحقيق علي أكبر الغفاري، (لا،ط)، قم، مؤسسة النشر الإسلاميّ، ١٤٠٥هـ، ص ٢٣٤.

(٢) المجلسي، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج٢٥، ص ٣٦٣.

بعد أن انتهينا من الأسئلة المتعلِّقة بخريطة طريق الكمال الإنسانيّ في آخر رسالة إلهيّة، نفتح المجال لأسئلة تتعلّق بالأنبياء الهداة إلى تلك الطريق في تاريخ البشريّة.

7

ما الدليل على عصمة الأنبياء من الذنوب؟

تبيّن ممّا سبق أنّ النبيّ محمّدًا ﷺ معصوم في تبليغ الرسالة، وفي أفعاله، وتقريره؛ وذلك لصيانة الرسالة الإلهيّة، وهذا ما يجرُّنا إلى أسئلة حول عصمة الأنبياء عليهم السلام، بشكل عامّ، عن الذنوب، لا سيّما في ضوء الآيات التي يظهر من عددٍ منها ما لا يتواءم مع هذه العصمة، وعليه نسأل: ما الدليل على عصمة الأنبياء عن الذنوب؟ والذي لا بدّ أن يسبقه سؤال عن معناها.

١- ما معنى العصمة ؟

الجواب:

أ- معنى العصمة في اللغة

قال ابن فارس: عصم: أصل واحد صحيح يدلّ على إمساك ومنع وملازمة[(١)].

ب- معنى العصمة في الإصطلاح

استعملت العصمة في المصطلح العقائديّ بما يتواءم مع المعنى اللغويّ (المنع)، فقد قال الفاضل السيوريّ: **«العصمة ملكة نفسانيّة تمنع المتّصف بها من الفجور مع قدرته عليه»**[(٢)].

٢- ما الدليل على عصمة الأنبياء من الذنوب ؟

إنّ العصمة تارةً تتعلّق بتلقّي الوحي، وتارةً بتبليغه، وهذا ما مرَّ بحثه، وتارةً تتعلّق بالذنوب، وأخرى بالخطأ، والنسيان.

---

(١) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، ج٤، ص٣٣١.

(٢) السبحاني، محاضرات في الإلهيّات، (لا،ط)، قم، مؤسسة الإمام الصادق، (لا،ت)، ص ٢٨٦.

وكلامنا هو في الدليل على العصمة من الذنوب، وهنا نعرض دليلين:

أ- الدليل العقليّ على عصمة الأنبياء من الذنوب

إنَّ الهدف من بعثة الأنبياء هو هداية الناس إلى طريق كمالهم ليسيروا فيه، فإذا كان النبيّ المنتخب والمصطفى من اللّه تعالى يقترف الذنوب، لأدّى ذلك إلى عقبتين في تحقيق ذلك الهدف:

العقبة الأولى: إنَّ اقتراف الأنبياء للذنوب يؤدّي إلى تزلزل الثقة بهم، وهذا ما قد يؤدّي إلى سريان ذلك التزلزل إلى الرسالة نفسها، ممّا يهدِّد الهدف من بعثة الأنبياء.

العقبة الثانية: إنّ تحقيق الهدف الإلهيّ، وهو هداية الناس إلى طريق كمالهم، لا يتحقّق بمجرّد بيان الرسالة بشكلٍ نظريٍّ، بل لا بدَّ من أن يواكب ذلك بالسيرة العمليّة للنبيّ القدوة، لذا فإنّ ارتكاب النبيّ للذنب يحدث خللاً في تأثّر الناس بالنبيّ ﷺ، فهم يتساءلون حينئذٍ: إذا كان من اختاره اللّه، واصطفاه من بيننا، وأنزل عليه وحيه، يعصي، فكيف يكون حالُ غيره من الناس؟!!

إنّ هذا يشكّل عقبة نفسيّة تحول دون تحقيق الهدف الإلهيّ في سير الناس في طريق تكاملهم؛ لأنّ الناس لا يتأثّرون بمن يخالف فعلُه قولَه.

اعتمادًا على ما سبق، فإنّنا نقول لأولئك الذين يفهمون من بعض الآيات القرآنيّة اقتراف الأنبياء للذنوب:

أيعقل من الله تعالى الذي اصطفى أنبياءه من بين سائر الناس، وأمر بالاقتداء بهم، ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1] أن يعرضهم متلبّسين بالذنوب، فهل هذا يتواءم مع الحكمة الإلهيّة؟!!

أنا إمام مسجد، افترضوا أنّي قرّرت أن أسافر شهرًا بعيدًا عن المسجد، وحتى يبقى الإحياء فيه، أتيت بعالم دين، وعرَّفت به المصلّين، وقلت في تعريفي له: إنّه إمامكم في الصلاة طيلة غيبتي، به اقتدوا، فهو قد درس في الحوزة سنوات طويلة خوّلته أن يتشرّف باللباس الدينيّ، ليكون مبلِّغًا ناجحًا، مع أنّه سرق في حياته مرّة، وكذّب مرّة أخرى،

(١) سورة الأنعام، الآية ٩٠.

وقتل إنسانًا كان يتخاصم مع آخر، ولكن مع ذلك لا بدَّ من الاقتداء به، فهل هذا الخطاب يعتبر حكيمًا؟!

أليس خطاب اللّه تعالى لاتخاذ الأنبياء قدوة، وفي الوقت نفسه الإخبار عنهم بأنّهم أذنبوا، ووصفهم بصفات سلبيّة هو شبيه بخطابي المفترض؟

إنّ الحكمة الإلهيّة تجعلنا نتأنّى بقراءة تلك الآيات، لنفهمها فهمًا يتماهى مع تلك الحكمة، وهذا ما سوف نوضحه، بإذنه تعالى، عند التعرّض لها.

ب- الدليل النقليّ على عصمة الأنبياء

إضافةً إلى الدليلين العقليّين السابقين على عصمة الأنبياء، فقد أكَّد القرآن الكريم هذه العصمة فقال تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١].

وكرّر اللّه تعالى هذا المعنى بقوله عزّ وجل: ﴿لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ

(١) سورة ص، الآيتان ٨٢-٨٣.

﴿الْمُخْلَصِينَ﴾[١].

إنَّ معنى لأغوينّهم أي لأضلّنهم، فالإغواء من الغيّ وهو الضلال[٢]، وعبارة ﴿لأُزَيِّنَنَّ﴾ الواردة في الآية الثانية تبيِّن طريقًا لهذا الإغواء، وهو التزيين، وتغيير الصورة القبيحة، وتقديمها جميلة، وقد ورد هذا المعنى في آيات أخرى، من قبيل قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾[٣]، فالشيطان بوساطة تزيينه يقلب الصورة في أنفسهم من سيّئة إلى حسنة، فيضلّهم بذلك.

ويبيِّن القرآن الكريم أنّ هذا الإغواء والإضلال، بوساطة التزيين، ونحوه، لا يصيب من أطلق عليه صفة المخلصين.

ومعنى المخلَص هو صاحب النفس الطاهرة الخالصة من كلِّ شيء غير ذات اللّه، فهي خالية من حبّ الدنيا، وزخارفها، وليس فيها إلاّ اللّه تعالى، كما نقول: ذهب

---

(١) سورة الحجر، الآيتان ٣٩-٤٠.

(٢) ابن الأثير، مجد الدين، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمّد الطناحي، ط٤، قم، مؤسسة اسماعيليان، ١٣٦٤ش، ج٣، ص٢٩٧.

(٣) سورة التوبة، الآية ٣٧.

خالص، أي ليس فيه أي شيء غير الذهب، فمن كان مخلصًا لا تؤثّر فيه محاولات الشيطان الإغوائيّة، وممّا لا شكّ فيه أنّ الأنبياء هم من هؤلاء المخلصين.

وعلى أساس ما تقدّم وصف القرآن الكريم العديد من الأنبياء عليهم السلام بصفة المخلص، فقال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾[1].

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾[2].

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ [أي عن يوسف عليه السلام] وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[3].

(١) سورة مريم، الآية ٥١.
(٢) سورة ص، الآيتان ٤٥-٤٦.
(٣) سورة يوسف، الآية ٢٤.

8

هل يستطيع المعصوم فعل الـحرام ؟

ما معنى أن يعصم اللّه تعالى الأنبياء ؟

هل معنى ذلك أنّه تعالى يمنعهم قهرًا من فعل الحرام ؟

العصمة الجبريّة

لقد أجاب بعضهم: نعم، إنّ العصمة هي قهريّة، اضطراريّة، جبريّة، فالمعصوم حينما يهمّ بفعل الحرام، فإنّ اللّه تعالى يتدخّل ويمنعه قهرًا عن فعل ذلك الحرام، ومثالاً على هذه الفكرة يقولون: إنّ النبيّ يوسف حينما همّ بامرأة العزيز، وكاد أن ينزلق في فعل المحرَّم، تدخّل اللّه تعالى، ومنع النبيّ عليه السلام من ارتكاب الإثم جبرًا وقهرًا.

ويسوِّغون تفسير العصمة بالنحو الجبريّ؛ بأنَّ اللّه تعالى أراد أن يعطي نموذجًا صافيًا للإنسان من كلّ إثم، حتّى لو

كان مقهورًا في فعله، فإنَّ ذلك لا يمنع من كونه نموذجًا لسائر الناس.

لكن يرد على هذا التسويغ بأنّ العصمة الجبريّة للأنبياء عليهم السلام تخرجهم عن مقام القدوة للناس، إذ كيف يقتدي الناس بمن يختلف عنهم بكونه مجبرًا على الصلاح، بينما هم في معرض الخير والشرّ، بل إنّ المؤمن المستطيع لفعل الحرام حينما يزجر نفسه عن المحرَّم باختياره، فإنّه يشعر بكونه أفضل من الأنبياء عليهم السلام ، فلو أنّ مؤمنًا حاولت إحدى النساء المتزوِّجات إغواءه، واستطاع أن يزجر نفسه عنها، فإنّه سيشعر في سرِّه بأنّه أفضل من النبيّ يوسف عليه السلام ، فهل يستقيم هذا الأمر مع دعوة القرآن الكريم إلى الاقتداء بالأنبياء بقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[1]؟

لا أعتقد أنّ من فسَّر العصمة بكونها جبريّة غير ملتفت إلى ما تقدَّم، إلاّ أن ما ألجأه إلى هذا التفسير هو صعوبةٌ

(١) سورة الأنعام، الآية ٩٠.

وجدها في المواءمة بين كون العصمة من اللّه تعالى وبين كونها اختياريّة، إذ كيف يكون النبيّ مختارًا في أفعاله، وفي الوقت نفسه معصومًا من اللّه تعالى؟!

تفسير العصمة الاختياريّة

إنّ الجواب عن السؤال المتقدِّم يكمن، بداية، في تفسير معنى العصمة، فقد تقدَّم تفسيرها بأنّها «**ملكة نفسيّة تمنع المتّصف بها من الفجور مع قدرته عليه**»[1].

وهذا التعريف يحتاج إلى تفصيل، فالعصمة عبارة عن علم خاص، راسخ في النفس، قد وهبه اللّه تعالى للنبيّ، أو غيره ممّن عصم، بحيث إنّ هذا العلم الخاصّ بالعالِم به هو بأن يرى الطاعة كما هي عليه في الواقع من جمال، والمعصية كما هي عليه في الواقع من قبح، فتكون صورة الشيء في نفسه واقعيّة دومًا لا يستطيع إبليس أو أحد من الناس أن يغيِّرها بتزيين المعصية، أو تقبيح الطاعة، وهذا

(١) السبحاني، محاضرات في الإلهيّات، (لا،ط)، قم، مؤسسة الإمام الصادق، (لا،ت)، ص ٢٨٦.

ما تقدّم في تفسير المخلَص، فالمخلَص نبيًّا كان أو غيره، نقيتْ نفسُه نقاءً تامًّا تبقى معه صور الأشياء على ما هي عليه في الواقع بدون تبديل، وعليه، فهو حينما يرى المعصية قبيحة، فإنّه لا يقدم عليها باختياره، وحينما يرى الطاعة جميلة، فإنّه يندفع إليها باختياره، ومن باب المثال، فإنّ اللّه تعالى يصف أكل مال اليتيم بأنّه أكلٌ للنار، إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[1]، والمعصوم يستطيع باختياره أن يأكل مال اليتيم، إلاّ أنّه لا يُقْدِم على ذلك؛ لأنّه يراه على حاله الواقعيّة نارًا، فكيف يقدم العاقل على النار ليأكلها؟ فلو أنّ طبيبًا علم يقينًا أنّ مصابًا بمرض السلّ المعدي شرب من كوب ماء، وانتقلت إليه الجراثيم المعدية، وكان الطبيب عطشان، فهل يشرب من الكوب نفسه؟! بل هل يتردّد في الشرب أو عدمه؟! أو أنّه يكون مصمِّمًا باختياره أن لا يشرب منه؟

(١) سورة النساء، الآية ١٠.

ولو أنّ مهندس كهرباء علم بأنّ السلك الكهربائيّ الذي أمامه فيه قوّة قاتلة، فهل تراه يُقْدِم على لمسه ؟!!

وعلى هذا الأساس يفسَّر موقف النبيّ يوسف عليه السلام الذي قال الله تعالى في توصيفه ﴿هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾[1].

إنّ زليخة همّت به، ولكنّ النبيّ يوسف عليه السلام، لأنّه رأى برهان ربّه، وهو ذلك العلم الخاصّ الذي يريه الأشياء على ما هي عليه، فيرى الحرام قبيحًا، فهو لولا ذلك العلم لهمَّ بها، لكنَّه لم يهمّ، ولم تتحرّك شهوته؛ لأنّه يرى الحرام على قبحه الواقعيّ.

أثر العلم الخاصّ على مقدِّمات المعصية

أجل، قلتُ: لم تتحرَّك شهوته؟ لأنّ صورة ذلك المشهد في نفسه هي قبيحة، وهذا الأمر يمكن أن نتعرَّف عليه نحن، وذلك حينما نتأمّل في بعض الأمور التي تحصل معنا نتيجة بيئة وتربية متراكمة، وأعطي لذلك مثالين:

(١) سورة يوسف، الآية ٢٤.

المثال الأوّل: الجائع ولحم الخنزير.

تربّى المؤمنون في مجتمعنا على كون لحم الخنزير حرامًا، حرمةً أضحى معها أكل هذا اللحم قبيحًا جدًّا، فلو أنّ أحد هؤلاء المؤمنين كان جائعًا جدًّا، ومرَّ من أمام مطعم يشوي لحم الخنزير، وتفوح رائحته، فهل إنّ هذا المؤمن الجائع العارف بكون المشويّ هو لحم خنزير تتحرّك شهوته نحوه؟

لا أظنّ أنّ أحدًا سيجيب بـ: نعم، بل إنّ تلك التربية ستشعره بالانزعاج والقرف حتّى لو كان جائعًا.

هكذا كان النبيّ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ يرى المشهد.

المثال الثاني: النظرة إلى المحارم

في أغلب المجتمعات الإنسانيّة تربية حثيثة على النظرة الخاصّة إلى المحارم، كالأمّ، والأخت، والابنة، ونحوهنَّ، بحيث نرى أغلب الناس لو رأى أمّه، أو أخته، أو ابنته، في مشهد جماليٍّ يثير الآخرين، فإنّ غريزته لا تتحرّك، عادةً، بسبب أنّ الصورة المركَّزة في نفسه هي كون هذه المرأة من المحارم.

إنّ هذين المثالين يوضِّحان لنا أنّه يمكن من خلال تربية خاصّةٍ أن ينقِّي الإنسان نفسه، فيعصمها من تزيين إبليس وتقبيحه.

وهذا ما فعله اللّه تعالى مع أنبيائه، فهو قد نقَّى أنفسهم، وأفاض عليهم العلم الخاصّ بحقائق الأمور، فكانوا يستطيعون فعل الحرام وترك الطاعة، لكنّهم ما كانوا يفعلون ذلك؛ لأنّهم يرون الطاعة في مشهد الجمال الذي يبعثهم نحوه، والمعصية في مشهد القبح الذي يبعدهم عنه.

فكيف إذا كان المشهد هو مشهد العشق الذي لا يتصرَّف فيه الحبيب إلاّ بما يرضي حبيبه؟ وهذا ما نتحدّث عنه لاحقًا.

يبقى سؤال هو:

لماذا منح الله هذا العلم لأناس بالخصوص دون سائر الناس؟

والجواب: أنّ اللّه تعالى علم بعلمه الأزليّ، قبل خلق الناس، أنّ هؤلاء الناس بالخصوص سيعبدون اللّه تعالى عبادة لا تشوبها شائبة، وترتقي على عبادة غيرهم من الناس، فأعطاهم اللّه تعالى منحة سابقة، وجائزة متقدِّمة، بأن أفاض عليهم العلم الخاصّ.

وهذا الجواب مستفاد من كلمات الشيخ المفيد الذي قال:

«العصمة تفضُّل من اللّه تعالى على من علم أنّه يتمسّك بعصمته»[(١)].

(١) المفيد، محمّد، تصحيح اعتقادات الإماميّة، تحقيق حسين درگاهي، ط٢، بيروت، دار المفيد، ١٩٩٣م، ص١٢٨.

9

ما سرّ دعوة اللّه نبيّه محمّدًا لاستغفار من ذنبه؟

أورد اللّه تعالى في القرآن الكريم عدّة آيات دعا فيها نبيَّه محمّدًا ﷺ إلى الاستغفار من ذنبه، قال تعالى:

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾[1].

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[2].

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[3].

---

(١) سورة غافر، الآية ٥٥.
(٢) سورة النصر، الآية ٣.
(٣) سورة الفتح، الآيتان ١-٢.

فكيف نفسِّر هذه الآيات، مع قطعنا بعصمة النبيّ محمّد ﷺ بالدليل العقليّ المتقدِّم، والذي لا بدّ أن يُفسَّر النصّ في ضوئه، لكون العقل القطعيّ هو الذي أوصلنا من خلال حكمة اللّه تعالى إلى النصّ القرآنيّ، وبالتالي لا يمكن أن يعارض هذا النصّ، فإذا كان ظاهره معارضًا له فلا بدَّ من أن نؤوّله بما يوائم ذلك الدليل العقليّ القطعيّ، وحال هذه الآيات هو حال تلك الآيات التي عرضنا في الكتاب السابق «يسألونك عن الله»، والتي تفيد بأنّ للّه تعالى يَدَيْن، بقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1]، وبأنّ له وجهًا، بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[2]، وبأنّ له عينًا، بقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[3]، وبأنّ له ساقًا، بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾[4]، فقد عرضنا في ذلك الكتاب تأويلاً لهذه الآيات بما يتواءم مع الدليل العقليّ المفيد بأنّ اللّه

(١) سورة المائدة، الآية ٦٤.
(٢) سورة القصص، الآية ٨٨.
(٣) سورة طه، الآية ٣٩.
(٤) سورة القلم، الآية ٤٢.

تعالى غنيّ، وبالتالي فهو غير مركّب؛ لأنّ المركّب محتاج إلى أجزائه، وبالتالي فهو ليس له جسم؛ لأنّ الجسم مركّب، وعليه فلا بدّ من تأويل تلك الآيات بما ينسجم مع الدليل العقليّ، بأن نقول: يُراد من اليدين يد الثواب ويد العقاب، أو يد القوّة ويد النعمة، ويُراد من الوجه الذات، ومن العين الرعاية، ومن الساق الشدّة، كما تقدّم ذلك في كتابنا الآنف الذكر، وعليه، فكيف نفسِّر آيات ذنب النبيّ محمّد ﷺ؟

جواب عامّ

نلاحظ أنّ العديد من الآيات القرآنيّة جرى فيها الخطاب إلى النبيّ ﷺ، لكنّها في الواقع ليست موجَّهة إليه ﷺ، بل كانت من باب المَثَل القائل: «إيّاك أعني، واسمعي يا جارة»، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾[1]، مع أنّ النبيّ ﷺ نشأ يتيمًا بلا والدين.

(١) سورة الإسراء، الآية ٢٣.

بناءً عليه، يمكن حمل الآيات الداعية إلى الاستغفار ونحوه بأنّها موجَّهة، من الظاهر، إلى الرسول الأكرم ﷺ، إلاّ أنّها في الحقيقة موجَّهة إلى سائر المسلمين.

جواب خاصّ

إنَّ معنى الذنب في اللغة «الجُرم»[١]، وهو من المفاهيم النسبيّة التي يَختلف انطباقها بحسب حال الإنسان وموقعه وبيئته، حاله في ذلك حال معنى العيب، فإنه أيضًا من المفاهيم النسبيّة؛ إذ نلاحظ أنّ بعض تصرّفات الإنسان البدويّ في بيئته ليست عيبًا، بينما التصرّف نفسه يُحكم عليه بالعيب في البيئة الحضريّة، وكذلك نُلاحظ أنّ أكلَ شابٍّ عاديٍّ في شارع عامّ ربّما لا يُعتبر عيباً، ولكن لو أنّ عالم دين ذا مكانة فعل ذلك فقد يُلام، ويُعتبر ذلك منه عيباً، بل قد يراه البعض مُسقطاً للمروءة.

واللافت في نظرة الناس إلى نسبيَّة الذنب أنهم قد

(١) ابن فارس ،أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، (لا.ط)، قم مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤ هـ،ج ٢٢ ص ٣٤٩- الجوهري، الصحاح تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، بيروت، دار العلم للملايين، ، ١٤٠٧ هـ، ج١، ص ١٢٩.

يعتبرون الفعل نفسه حسنًا من ناحية، وذنبًا من ناحية أُخرى، وقد يكون منشأ هذا الأمر مقام الإنسان وشأنيَّته، فلو أنّ شابّاً متديّنًا ليس له تميّز في موقعه وشأنه الاجتماعيّ، طلب من أحد الأشخاص البعيدين عن أجواء التديُّن والأخلاق مساعدةً لأجل نشاط إسلاميّ، فقام ذلك الشخص ووبَّخه، وطرده، رافضًا إعطاءه أيَّ مساعدة، فما هو موقفنا من عمل هذا الشابّ؟

من الطبيعي أن نثني على عمله، ونعتبره حسنًا، وإن لم تحصل النتيجة المطلوبة.

ولكن لو أنَّ مرجعًا دينيًّا، أو قائدًا كبيرًا، قام بهذا الطلب، وطرده ذلك الرجل، فهنا قد نُعاتب المرجع أو القائد: بأنّ هذا العمل غير لائق ومناسب لمقامه وشأنه، فلا نعدُّ ما صدر عنه حسناً باعتبار شأنيَّته وموقعه، فهذا الفعل هو حسن باعتبار، وهو ليس كذلك باعتبار آخر.

ولتقريب الفكرة أكثر، أُعطي مثالاً يتعلّق بالحكم على الشيء تارة بلغة العقل وأُخرى بلغة القلب.

فقد ورد في الأدب العالميّ قصص حبٍّ وعشقٍ خرجت عن مألوف الناس، كعشق روميو لجوليت في الأدب الإنكليزيّ، وشيرهاد لشيرين في الأدب الفارسيّ، وقيس لليلى في الأدب العربيّ الذي ورد فيه أنَّ قيسًا كان يتبدّل حاله بين العقل والجنون بسبب لقائه ليلى.

وبغضّ النظر عن واقعيّة تلك القصّة، واعتمادًا على المعروف منها، فلو أنَّ قيسًا كان يجلس مع ليلى، فهو يعتبر أنّ جلوسه معها يُمثِّل قمة السعادة، وغاية الكمال المنشود، فلو أنه أثناء جلوسه مع معشوقته اضطرَّ إلى تركها نصف ساعة ليُعطي الدواء لأُمِّه المريضة، ثمّ عاد إليها، فما هو الحكم المناسب لذهابه إلى والدته لأجل مداواتها ؟

فمن الواضح أنّ هذا العمل، بلغة العقل والمجتمع، هو حسن، بل من أوجب الواجبات، وأفضل ما يقوم به الإنسان في حياته من أعمال.

ولكن إذا أردنا الحديث عن موقف قيس حينما يرجع إلى ليلى -وهي عارفة بما قام به- وقد تركها نصف ساعة، فهل

يعود بشكل طبيعيّ بدون اعتذار؟ أو أنه يعتذر إليها لغيابه عنها نصف ساعة، على رغم ضرورة ما قام به؟ الجواب بلغة القلب: أنه يعتذر إليها، على قاعدة أنّ للعقل لغة، وللقلب لُغة أُخرى، ففعله بلغة العقل حسنٌ، وبلغة القلب بحاجة إلى اعتذار.

وهكذا هو حال الأنبياء عليهم السلام، في كثير من حالاتهم التي يعتبرون فيها أنّ خلوتهم مع اللّه تعالى، وقيامهم بين يديه- عزَّ وجلّ- تُمثِّل لهم قمة الكمال الإمكانيّ، والعبوديّة الإنسانيّة، لذا فهم حينما ينصرفون من بين يدي اللّه تعالى لأجل القيام بأمور لا تخلو من حُسْن، فإنَّهم يرجعون إلى اللّه تعالى في خلوتهم معه، معتبرين ما صدر عنهم بأنه ذنب، وعليهم أن يستغفروا اللّه بسببه. وهذا من مصداق القول المعروف: «**حسنات الأبرار سيِّئات المقرّبين**»[(١)].

(١) الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، الجواهر السنية، (لا،ط)، النجف، مطبعة النعمان، ١٩٦٤م. ص٨٣.

والخلاصة:

أوّلاً: إنّ الذنب لا يعني -دائمًا- الإثم باعتباره معصية لأوامر اللّه الإلزاميّة.

ثانياً: إنّ الذنب قد يُطلق على أمر حسن بذاته، لكنّه ليس كذلك باعتبار مقام بعض الناس وأولويّاتهم.

ثالثاً: إنّ الذنب قد يُطلق على أمرٍ ليس فيه قبح ذاتيّ، إلاّ أنّه يُعدّ جرمًا لبعض الاعتبارات دون بعضها الآخر.

الذنب في آية الفتح

إنَّ ما تقدَّم يصحّ جوابًا عن الآية الأولى والثانية المتقدِّمتين في طيَّات السؤال السابق، أمّا آية الفتح، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا × لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[1]، فإنّ لها تفسيرًا خاصًّا؛ هو أنّ المراد من الذنب منها هو التبعة السيّئة التي كانت لدعوته ﷺ عند المشركين، فقد تأذَّى المشركون كثيراً من دعوة رسول اللّه ﷺ، التي اعتبروها مقوِّضة لأركان تراثهم، وما يعتبرونه

(١) سورة الفتح، الآيتان ١-٢.

دِيناً لهم، وبالتالي لعزّتهم وكرامتهم أمام سائر العرب وغيرهم. لذا كانوا يعتبرون ما قام به النبِّي ﷺ من الدعوة إلى الإسلام، ومناهضة عبادتهم للأوثان ذنبًا كبيرًا، أرادوا أن يؤكِّدوا نظرة الناس إليه كذَنْب، ويروِّجوا ذلك في أوسع بقعة يتمكّنون منها.

ولأجل ذلك شنّوا هجومًا على النبيّ ﷺ منذ بداية الإعلان عن دعوته؛ من خلال الدعاية المُشوِّهة لصورته ودينه الذي كان ﷺ يدعوهم إليه، فنعتوه بالساحر والمجنون والشاعر المختلق للقرآن، بل ورد أنهم كانوا في مواسم الإقبال على مكّة يجعلون بعض رجالهم قرب النَّبي ﷺ؛ ليشوِّشوا عليه، ويشوِّهوا صورته بنعته بتلك الصفات السلبيّة.

وقد أثَّرت هذه الدعاية بشكل كبير في العرب، فحالت بين عقولهم، وتأثُّرها بالمنطق النبويّ، وبين قلوبهم، وتوجُّهها نحو رسالته الإلهيّة.

نعم لقد اختلق أهل قريش قضية كاذبة حول شخصية النَّبيّ ﷺ ودعوته، وعمَّموها على البلدان، وسيطروا بها على

عقول كثير من العرب وقلوبهم، فأصبحت عقولهم وقلوبهم مُغلقة أمام دعوة الإسلام.

لقد كان عمل أهل قريش يُركّز على إدراك الإنسان؛ لأنّ من يستطيع السيطرة عليه يُمكنه تسيير الإنسان بالوجهة التي يريد؛ إذ إنّ سلوك الإنسان تابع لإدراكه وعلمه، وليس لواقعيّة الشيء، فالإنسان الذي تقترب منه أفعى سامّة، وهو لا يعلم بوجودها، فإنّه لا يتحرّك من مكانه، ولا يهرب منها، فإذا علم بها، فإنه يتحرّك هاربًا، وهذا يدلُّ على أنّ الذي يحرِّك الإنسان، ويؤثِّر في سلوكه، هو إدراكه، وليس وجود الشيء الواقعيّ.

وهكذا نلاحظ أنّ نظرة الإنسان إلى الإنسان الآخر، وسلوكه معه، لا يكونان بحسب ما هو عليه الآخر من واقع، بل بحسب إدراك الإنسان الذي قد يكون وهمًا لا حقيقة. بل إنّ الإنسان قد لا يتفاعل مع قيمة عالية لعدم إدراكه لها، فقد يطوف المؤمن حول الكعبة الشريفة وكتفه إلى جنب كتف إمام الزمان وصاحب العصر عجّل الله فرجه الشريف، لكنّه لا يتأثّر بذلك

بسبب عدم معرفته به، في حين أنّه لو عرفه ستكون حالته ممّا يصعب توصيفها. وقد يعتقد الإنسان بمقام إنسان آخر، فيقدِّره، ويحترمه، ويجلّه، مع أنّه قد يكون واهمًا في اعتقاده.

إذًا ما يحرِّك الإنسان ويؤثِّر في سلوكه هو إدراكه، وليس الواقع المجرَّد عن ذلك الإدراك.

وهذا يسري على حال الفرد والمجتمع، فإنّ من يريد أن يغيِّر مجتمعًا ما عليه أن يسيطر على إدراك أبنائه ليحصل التغيير، فيمكن للإنسان أن يحوِّل أسطورة وهميّة إلى حقيقة في أذهان الناس، ويتمكّن من جعلهم يعتبرونها قضيّة حقَّة، يرتِّبون عليها الآثار والنتائج،كما هو الحال في اختراع اليهود قصّة «**الهولوكست**» (المحرقة اليهوديّة)، التي استطاعوا أن يزرعوها كحقيقة في أذهان الكثير من الناس في العالم، كقضيّة تعبِّر عن قمة المظلوميّة للشعب اليهوديّ، حتّى أثَّر ذلك في الحكومات التي تدَّعي حُرِّية التعبير والفكر في العالم الغربيّ، فإذا بها تحكم بالسجن والملاحقة على مُفكِّرين كبار؛ لأنهم شكَّكوا في قصّة «**الهولوكوست**».

وكذلك قصة «**الماسادا**» التي تحكي عن قتل ٩٠٠ يهوديّ لم يُسلِّموا أنفسهم للرومان في ملحمة بطوليّة مزعومة، فإنّ المحقّقين يؤكِّدون أنّها لا أثر لها في التاريخ، سوى ما رُويَ عن مجموعة من المشاغبين اليهود، انتحروا أثناء حصارهم من قبَل الرومان.ومع ذلك جعل اليهود «**الماسادا**» رمزًا للتضحية، حتّى إنّ الجنديّ الإسرائيليّ يذهب إلى نُصب «**الماسادا**» حينما يريد أن يقسم يمين الولاء للكيان الصهيونيّ.

وهكذا حال الكثير من القضايا المُختَرَعة التي يُحوِّلها الإعلام من خلال معركة الإدراك والوعي إلى ما يعتقده الآخرون حقائق. كما تفعل اليوم أمريكا في حربها الناعمة ضدّ الإسلام وقيمه.

وبالعودة إلى أهل قريش الكافرين، فقد مارسوا لعبة الإدراك بذكاء وشيطنة، حتّى استطاعوا أن يؤثِّروا في عقول العرب وقلوبهم بشكل كبير، بحيث إنَّ الدعاية المنتشرة المشوِّهة لصورة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ودينه أضحت قابلة للاستمرار بشكل مركّز في المستقبل.

فعقول العرب وقلوبهم كانت مُغلقة بشكل مُحكم، قابل للاستمرار والبقاء؛ بحيث كان ذلك مانعًا من دخولهم إلى دين اللّه تعالى.وبعبارة أُخرى كان النبيّ ﷺ في نظرهم مُذنبًا ذنبًا كبيرًا، كما تقدَّم في ما قام به من الدعوة، وسيستمرُّ ذنبه في المستقبل طالما هو سائر في دعوته.

من هنا كان هذا الإغلاق للعقول والقلوب مانعًا من دخول الناس في دين اللّه أفواجًا، فكان فتح مكّة هو فتحًا لعقول الناس وقلوبهم، وهو محوًا للدعاية السابقة المشوِّهة لصورة النبيّ ﷺ، كما كان دافعًا لتلك الدعاية اللاحقة، بهذا المعنى، غفر اللّه للنبيّ الأكرم ﷺ ذنبه المتقدِّم والمتأخِّر معًا.

10

كيف نفسِّر معصية آدم عليه السلام؟

وردت في القرآن الكريم آيات عديدة حول معصية النبيّ آدم عليه السلام، في بعضها تصريح بتلك المعصية، كقوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[١]، وفي بعضها تفصيل لوسوسة الشيطان له أن يأكل وزوجته من الشجرة، كقوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾[٤]، وفي بعضها الآخر إعلانٌ لتوبة آدم عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن

(١) سورة طه، الآية ١٢١.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٠.
(٣) سورة البقرة، الآية ٣٦.
(٤) سورة الأعراف، الآية ٢٢.

رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١]. فكيف نفسِّر معصية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه؟

نعرض ثلاثة أجوبة في مقام تفسير معصية نبيّ اللّه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الجواب الأوّل: إنّ كلّ الأحداث التي عرضها القرآن الكريم في معصية آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت في الجنّة، والجنّة ليست مقامًا للتكليف، فقبل نزوله عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأرض لم يكن هناك تشريع، ولا أوامر مولويّة واجبة الطاعة تحرم مخالفتها، والحديث عن العصمة إنّما هو في هذه الدنيا التي هي مكان التشريع والتكليف، وبالتالي الطاعة والمعصية، وعليه فكلّ ما حصل لا ينفي عصمة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الجواب الثاني: إنّ الأوامر والنواهي الإلهيّة على نوعين:

١- أوامر ونواه مولويّة، والأولى يجب امتثالها، ويترتّب على ذلك الثواب، والثانية يجب تركها، ويترتّب على فعلها العقاب.

(١) سورة البقرة، الآية ٣٧.

٢- أوامر ونواه إرشاديّة، والأولى لا يترتّب على فعلها ثواب، والثانية لا يترتّب على معصيتها عقاب، إنّما تكونان في مقام بيان أنّ في الفعل مصلحة للإنسان، أو ضررًا عليه، وحال هذه الأوامر والنواهي الإلهيّة الإرشاديّة، كحال أوامر ونواهي الطبيب للمريض.

فإذا نهى الطبيب مريضه المبتلى بداء السكريّ أن يتناول الحلوى، فإنّ عدم طاعة المريض له لا يترتّب عليه عقاب منه، بل الحاصل هو ضرر يلحق به.

بناءً على ما تقدَّم، فإنّ من الأجوبة عن معصية آدم عليه السلام أنّ نهي الله تعالى هو إرشاديّ لا مولويّ، والشاهد على كونه إرشاديًّا أنّ الله تعالى بيَّن في كلامه الضرر الذي يلحق بآدم عليه السلام في حال أكله من تلك الشجرة، إذ قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[1].

وبهذا يكون العصيان هو مخالفة النهي الإرشاديّ، وليس

(١) سورة طه، الآية ١١٧.

مخالفة التكليف المولويّ؛ لأنّ معنى عصى أي خالف، وهو يصلح للنهيّ الإرشاديّ لا المولويّ، وعليه فإنّ ما حصل مع آدم عليه السلام لا يتنافى مع عصمته، فهو لم يرتكب حرامًا بكلّ ما جرى معه.

الجواب الثالث: وهو تعميق للجواب الثاني.

ولبيانه نفصّل ما جرى مع آدم عليه السلام وخلفيّته بالآتي:

إنّ اللّه تعالى حينما أراد أن يخلق الإنسان أخبر الملائكة منذ البداية أنّه خلق الإنسان ليكون خليفةً له في الأرض، وليس في الجنّة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

وعليه، فإنّ إدخاله عليه السلام إلى الجنّة كان باعتبارها محطّة لينزل عليه السلام بعدها إلى الأرض، وبالتالي فإنّ التخطيط الإلهيّ منذ البداية كان ليعيش آدم عليه السلام في الأرض.

لكنّ اللّه تعالى، بحسب تحليل الآيات، أراد لآدم عليه السلام أن ينزل إلى الأرض باختياره، وليس بالجبر والقهر.

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.

ولأجل تنفيذ المشروع الإلهيّ المقتضي لنزول آدم عليه السلام إلى الأرض أسكن الله تعالى آدم عليه السلام في الجنّة، وكفاه فيها الأمور الأساسيّة لاستمرار الحياة، وهي:

١- الجنس والعاطفة، من خلال خلق زوجته حواء وإسكانها معه في الجنّة، قال تعالى: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾[١].

٢- الطعام، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ﴾[٢].

٣- الشراب، قال تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ﴾[٣].

٤- اللباس، قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْرَى﴾[٤].

٥- الطقس المناسب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَضْحَى﴾[٥]، باعتبار أنّ موجة الحرّ تكون وقت الضحى.

وقد بيّن الله تعالى لآدم عليه السلام أنّ الجنّة كلّها مباحة له، باستثناء شجرة واحدة، فقال له: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ

---

(١) سورة البقرة، الآية ٣٥.

(٢) سورة طه، الآية ١١٨.

(٣) سورة طه، الآية ١١٩.

(٤) سورة طه، الآية ١١٨.

(٥) سورة طه، الآية ١١٩.

﴿وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾[١].

ويبدو من الآيات القرآنيّة أنّ هذه الشجرة فيها خصوصيّات أرضيّة تختلف بها عن باقي شجرات الجنّة، وقد بيّن اللّه تعالى لآدم عليه السلام أنّ الأكل من هذه الشجرة سيجعلُه إنسانًا أرضيًّا، يخسر من خلال ذلك امتيازات الجنّة، فإذا أكل منها فإنّه سينتقل من الرعاية الإلهيّة الخاصّة في الجنّة إلى مقام آخر يحتاج معه آدم عليه السلام وزوجته إلى جهد وتعب، بدءًا من ستر عورتيهما، وهذا هو الذي حصل بعد ذلك فعلاً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[٢].

من هنا كان النهي الإلهيّ لآدم عليه السلام وزوجته عن الاقتراب من تلك الشجرة، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾[٣].

(١) سورة البقرة، الآية ٣٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٢٢.
(٣) سورة البقرة، الآية ٣٥.

وإن أبعدنا احتمال كون الجنّة هي من حدائق هذه الأرض[١]، فإنّ السؤال الأساسيّ هو: كيف نوائم بين كون مشروع اللّه تعالى هو نزول آدم عليه السلام إلى الأرض ليكون خليفة اللّه فيها، وبين نهي اللّه لآدم عليه السلام عن الاقتراب من الشجرة التي تكون نتيجة الأكل منها أن ينزل آدم عليه السلام إلى الأرض؟

قد يُستفاد من الجمع بين إرادة اللّه أن ينزل آدم عليه السلام إلى الأرض، ونهيه عن فعل ما يوجب نزوله إليها، هو أنّ اللّه عزّ وجلّ، وبسبب المعاناة في بيئة الأرض، أراد أن ينزل آدم عليه السلام باختياره إليها، فكان نهيه عن الاقتراب من تلك الشجرة هو بيانًا لما سيحلّ من تلك المعاناة «فَتَشْقَى»[٢].

وهنا كان آدم عليه السلام، العالِم بالأسماء ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾[٣]، وكذا بالمشروع الإلهيّ في الأرض، بين أمرين:

١- أن لا يأكل من تلك الشجرة، ويبقى في الجنّة، فهو

---

(١) توجد رواية تفيد هذا المعنى. (انظر: الكلينيّ، محمّد، الكافي، ج٣، ص ٢٤٧).
(٢) سورة طه، الآية ١١٧.
(٣) سورة البقرة، الآية ٣١.

سيكون ممتثلاً لنهي اللّه تعالى الإرشـاديّ، وغير معرِّض نفسه لتلك المعاناة.

٢- أن يأكل من تلك الشجرة، وبالتالي ينزل إلى الأرض، فيكون قد حرم نفسه من البقاء في الجنّة، وخالف نهي اللّه تعالى؛ بمعنى أنّـه أقحم نفسه في الشقاء الذي حذَّره منه، لكنّه في الوقت نفسه يكون قد حقّق إرادة اللّه عزّ وجـل، ومشروعه الكبير في خلافة الإنسان للّه تعالى، وبالتالي فإنّ آدمعليه السلام سيشقى من تعب الدنيا، إلاّ أنّه سيتكامل أكثر من كماله في الجنّة؛ بسبب تلك المعاناة، وما يتحمّله من خلالها.

لذا قرّر آدمعليه السلام أن يحقِّق إرادة اللّه تعالى، ويأكل من تلك الشجرة.

ولعلّه يمكن تقريب هذه الفكرة، التي تجمع بين إرادة اللّه للشيء، ونهيه عن مقدِّماته، بالأب الذي يحبُّ ويريد لولده أن يتدرّب على القتال الذي يستدعي الكثير من التعب والمشقّة والتخشّن، لكنّه لا يريد أن يكون هو (أي الأب) الدافع له نحو

ذلك التدرّب، بل يريد أن تكون إرادة ولده هي المحرِّك له، لذا فإنّه يبيِّن له تلك الصعوبات التي يواجهها هناك من تعب وإرهاق، وعطش وجوع، وقلّة نوم...الخ، بينما هو في مهد أبيه ينام ملء جفونه.

فلو أنّ أحدًا سمع الأب وهو يحدّث ولده، لظنّ أنّه ينهاه عن الذهاب إلى هناك، ويكره له ذلك، إلاّ أنّه في واقع الأمر يكون محبًّا مريدًا لذهابه، لكن على قاعدة أن يكون ذلك بإرادة الولد وحركته الذاتيّة.

لقد حسم آدم أمره، وقرّر أن يحقِّق إرادة اللّه تعالى؛ بالنزول إلى الأرض عبر الأكل من تلك الشجرة، محلِّلاً النهي الربّانيّ أنّه إرشاد إلى الواقع الذي سيستجدّ عند نزوله إلى الأرض، لكنّ تلك المعاناة في مرتبةٍ تغبطه عليها الملائكة أكثر من غبطتهم له عند سجودهم له مع أوّل خلقه.

إبليس في معادلة النزول

إنّ ما تقدّم لم ينحصر في علاقة آدم عليه السلام بربّه فقط، بل كان لإبليس، بحسب الآيات القرآنيّة، تدخّل واضح في

مجريات ما حصل، فإبليس له مصلحة أيضًا في نزول آدم إلى الأرض؛ لأنّه وإن كان غير قادر على الدخول إلى نفس آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلاّ أنّه يأمل أن يُحرف الكثير من ذريّته، بل أكثرهم، وهذا ما صرّح به قائلاً: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً﴾[1]، أي لأقودنّهم إلى المعاصي، كما تُقاد الدابّة بحنكها إذا شُدَّ فيها حبل تُجرّ به، كما فسّره بعضهم[2].

إذًا، إنّ نزول آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأرض عبر أكله من تلك الشجرة يحقِّق غايتين:

الأولى: غاية محمودة لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي تحقيق إرادة اللّه في خلافة الإنسان في الأرض.

الثانية: غاية مذمومة للشيطان، وهي اغواء وإضلال الكثير من ذريّة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

من هنا تدخّل الشيطان مع آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ ليبيِّن له فوائد

(١) سورة الإسراء، الآية ٦٢.

(٢) الطوسيّ، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب قصير العامليّ، ط١، طباعة ونشر مكتب الإعلام الإسلاميّ، ١٤٠٩هـ، ج٦، ص ٤٩٧.

الأكل من تلك الشجرة، فقال له: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾[١]، وقال تعالى: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[٢].

والملاحظ أنّ الشيطان حاول أن يعطي الصورة العكسيّة للأكل من الشجرة، فالخلد هو لساكن الجنّة، والسلامة من البلاء هو من أوصاف الجنّة، فإذا بإبليس يستخدم هاتين الصفتين بشكل معاكس تمامًا لواقع الأمر، فيجعلهما حقًّا لمن أكل من شجرة الأرض التي يؤدّي الأكل منها إلى حياة تنتهي بالموت، وإلى ملك يسارع إليه البلاء.

لقد أصبح آدم عليه السلام أمام ثلاثة نداءات:

١- نداء نهي اللّه بعدم الاقتراب من الشجرة حتّى لا يحصل الشقاء.

٢- نداء إرادة اللّه بالأكل من الشجرة ليحقّق مشروع

---

(١) سورة طه، الآية ١٢٠.

(٢) سورة الأعراف، الآيتان ٢٠-٢١.

خلافة الإنسان في الأرض بوساطة الشقاء التكامليّ.

٣- نداء وسوسة الشيطان بالأكل من الشجرة، موحيًا بالخلود ودوام السلامة، مريدًا إغواء ذريّته.

قرَّر آدم عليه السلام الاستجابة لنداء إرادة اللّه تعالى، وإن واكبته مصلحة لإبليس.

إنّ هذا التقديم لقصّة آدم عليه السلام هو محاولة للاقتراب من حقيقة ما جرى مع الإنسان الأوّل الذي ميّزه اللّه تعالى من الملائكة بالعلم، ﴿عَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[1]، والذي عرف إبليس منذ البداية، برفض السجود له، إنّه دفاع عن كون البشريّة لم تبتدئ بمخالفة للّه عزّ وجلّ، بل بسير على أساس إرادته، وإن كان فيه الكثير من الشقاء، إلاّ أنّه يمثّل قمّة التكامل الاختياريّ.

(١) سورة البقرة، الآية ٣١.

11

ما تفسير الآيات المتعرِّضة للنبيّ إبراهيم عليه السلام في العقيدة والسلوك؟

تعرَّضت عدة آيات قرآنيّة لخليل الله ونبيّه إبراهيم عليه السلام، تارةً فيما يخصّ عقيدته بالله تعالى، وأخرى بما يخصّ سلوكه، ممّا قد يوهم البعض بأنّها تخدش من مقام عصمته، نعرضها بما يأتي:

إبراهيم وربوبيَّة الكواكب

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا

رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

قد يظنّ البعض أنّ هذه الآيات تخدش من المقام الاعتقاديّ باللّه تعالى للنبيّ إبراهيم عليه السلام في بداية رحلته البحثيّة، بتوهّم أنّ نبيّ اللّه انتقل في حياته من الاعتقاد بربوبيّة الكواكب ليصل إلى الاعتقاد بوحدانيّة اللّه تعالى. وقد طرح المأمون سؤالاً للإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام حول هذه الآيات، فقدّم الإمام عليه السلام إجابته بالقول: «إنّ إبراهيم عليه السلام وقع إلى ثلاثة أصناف: صنف يعبد الزهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس»[٢].

إذًا كلام نبيّ اللّه كان موجَّهًا إلى ثلاثة أصناف يعبد كلٌّ منهم كوكبًا بصفته الربّ المدير للكون والإنسان. وأراد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أن يقنعهم بانحصار الربوبيّة والألوهيّة باللّه

(١) سورة الأنعام، الآيات ٧٨-٧٩.

(٢) الصدوق، محمّد، عيون أخبار الرضا، تصحيح وتعليق وتقديم حسين الأعلمي، (لا،ط)، بيروت، مؤسّسة الأعلميّ، ١٤٠٤هـ، ج١، ص١٧٥.

تعالى، فاستخدم أسلوبًا مؤثِّرًا في الإقناع، فحينما رأى كوكب الزهرة قال: هذا ربي! بلهجة استفهاميّة، يُعبّر عنها في الاصطلاح بالاستفهام الاستنكاريّ، ومثاله حينما يقول المتسوّل لمن أعطاه صدقة قليلة: هذا كرمك؟! مستنكرًا عليه قلّة عطائه.

فلمّا أفل كوكب الزهرة، أي غاب واختفى نوره، قال: لا أحبّ الآفلين؛ لأنّ الأفول من صفات الحادث، أي المسبوق بالعدم، وليس من صفات القديم غير المسبوق به، فلمّا رأى القمر مضيئًا بحجم يبدو كونه أكبر من الزهرة، قال بلهجة الاستفهام الاستنكاريّ: هذا ربّي! باعتبار أنّ الربوبيّة إذا كان منطلقها الحجم الظاهر من النور، فالقمر أولى من الزهرة، وهذا الأمر يثير الشكّ عند عابدي الزهرة، إن لم يوجب التحوّل عندهم، لكنّ القمر حينما غاب أثار التساؤل نفسه؛ بكون الأفول والغياب لا يتناسب مع الربّ الذي لا بدَّ أن يواكب عبده بالهداية، وإلا ضلَّ عن السبيل، فلمّا أصبح، وظهرت الشمس بحجمها الأكبر، ونورها الأسطع،

قال بلهجة الاستفهام الاستنكاريّ أيضًا: ﴿هَذَا رَبِّي﴾، وعلّل ذلك بقوله: ﴿هَذَآ أَكْبَرُ﴾، ممّا يثير الشكّ عند عابدي الزهرة والقمر، إنْ لم يوجب التحوّل عندهم، فلمّا غابت اغتنم النبيّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ تشكيكه المتكرِّر بكون الآفل لا يصلح للربوبيّة لينقل القوم إلى عبوديّة اللّه تعالى الذي لا يغيب، بل هو خالق الكواكب وسائر السموات والأرض، فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

إذًا لم يكن موقف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ معبِّرًا عن قناعة متدرِّجة لديه، بل عن أسلوب احتجاج وإقناع قومه بوحدانيّة اللّه تعالى، وقد أوضح اللّه تعالى ذلك بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾[2].

إنَّ ما تقدَّم هو توضيح لجواب الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ لسؤال المأمون.

(١) سورة الأنعام، الآيات ٧٨-٧٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية ٨٣.

إبراهيم عليه السلام وعدم الاطمئنان

قال تعالى: عن لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

قد يتوهّم البعض أنّ سؤال النبيّ إبراهيم عليه السلام فيه نوع من الانتقاص بعقيدته؛ لأنّ قوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ يفيد عدم اكتمال إيمانه بإحياء اللّه تعالى للموتى.

ولدفع هذا التوهّم نذكر جوابين:

الجواب الأوّل: أنّ النبيّ إبراهيم عليه السلام كان على يقين بقدرة اللّه تعالى على إحياء الموتى، وإنّه سيُحييهم فعلاً، لكنّ الاعتقاد الجازم بشيء لا يتناقض مع السؤال بهدف معرفة كيفيّة حصوله، فأنا مثلاً، حينما أرى المصباح الكهربائيّ مضيئًا أمامي أعتقد جازمًا بوجوده وبإضاءته، ولكنّ هذا الاعتقاد يجتمع مع سؤالي حول كيفيّة حصول

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

هذه الإضاءة، فما الذي يحدث داخل الزجاجة حينما تصل الطاقة الكهربائيّة إلى ذلك السلك الكائن فيها ليبعث هذا النور القويّ؟! فأسأل: كيف يضيء المصباح؟ فهل سؤالي هذا يتناقض مع إيماني واعتقادي الجازم بوجود النور وإضاءته؟ الجواب: كلا، وعند ملاحظة قلبي، قبل معرفة كيفيّة حدوث الضوء، تراه متسائلاً عن الكيفيّة، طالبًا معرفتها، وبمعرفة الكيفيّة ينتفي عندي السؤال، وبالتالي أصل إلى مرحلة الاطمئنان والاستقرار الأتمّ.

إنّ هذا تقريبٌ لحال النبيّ إبراهيم عليه السلام الذي كان على يقين تامّ جازم بأنّ اللّه تعالى سوف يُحيي الموتى، لكنّه لم يكن قد رأى كيفيّة ذلك ليصل إلى استقرار القلب بهذه الرؤية الفعليّة، فسأل اللّه تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى، فاستجاب اللّه تعالى له، وطلب منه تعالى أن يأخذ أربعة من الطير، وأن يصرهنّ إليه، ثمّ يجعل على كلّ جبل منهنّ جزءًا، ثمّ يدعوهنّ، فأخذ، كما في الرواية، نسرًا، وبطًّا،

وطاووسًا، وديكًا، فقطعهنّ وخلطهنّ، ثمّ جعل على كلّ جبل من الجبال العشرة التي حوله منهنّ جزءًا، فجعل مناقيدهنّ بين أصابعه، ثمّ دعاهنّ بأسمائهنّ، فتطايرت تلك الأجزاء بعضها إلى بعض حتّى استوت الأبدان، وجاء كلّ بدن حتّى انضمّ إلى رقبته ورأسه، وجئن إلى نبيّ اللّه، وقلن: «**يا نبيّ اللّه أحييتنا أحياك اللّه، فقال إبراهيم عليه السلام، بل اللّه يحيي ويميت، وهو على كلّ شيءٍ قدير**»[١].

الجواب الثاني: هو ما أجاب به الإمام الرضا عليه السلام المأمون حينما سأل عن تفسير تلك الآيات فقال: «**إنّ اللّه تبارك وتعالى كان قد أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: أنّي متخذ من عبادي خليلاً، إن سألني إحياء الموتى أجبته، فوقع في نفس إبراهيم عليه السلام أنّه ذلك الخليل، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن**

---

(١) الصدوق، محمّد، التوحيد، (لا،ط)، قم، منشورات جماعة المدرسين، (لا،ت)، ص١٣٢.

﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[(١)] على الخلّة»[(٢)]. أي ليطمئنّ قلبه على كونه هو ذلك الخليل لله تعالى الذي حدّثه عنه ربّه.

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ودِقّة الكلام

قال تعالى: عن لسان النبيّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[(٣)].

قد يتوهّم البعض أنّ النبيّ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما قال

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٦٠.

(٢) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج١١، ص٨٠.

(٣) سورة الأنبياء، الآيات ٥٧-٦٦.

لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾، إنّه، والعياذ بالله، لم يكن صادقًا، وهذا يتنافى مع عصمته.

والجواب أنّ نبيّ الله قد علَّق كون الفاعل كبيرهم بشرط مستحيل هو أنّهم ينطقون، فكأنّه قال: «إن كانوا ينطقون فقد فعله كبيرهم»[1]، وعليه فهو عليه السلام لم يكن كاذبًا في قوله هذا، بل هو بذلك أراد أن يوصل رسالة لهم؛ بأنّ من كانت هذه حاله لا يكون ربًّا، ولا يستحقّ العبادة، فمن لا يقدر أن يدفع عن نفسه كيف يدفع عن غيره ليكون ربًّا؟!

(١) انظر: الطوسيّ، محمّد، الخلاف، (لا،ط)، قم، مؤسسة النشر الإسلاميّ، ١٤٠٧هـ، ج٤، ص٤٩١.



ما تفسير الآيات المتعرِّضة للنبيّ موسى عليه السلام في العقيدة والسلوك؟

تعرّضت عدّة آيات قرآنيّة لكليم اللّه ونبيِّه موسى عليه السلام، تارةً فيما يخصّ عقيدته باللّه تعالى، وأخرى بما يخصّ سلوكه، ممّا قد يوهم البعض بأنّها تخدش من مقام عصمته. نعرضها فيما يأتي:

موسى عليه السلام يقتل رجلاً

قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[١].

---

(١) سورة القصص، الآية ١٥.

السؤال: كيف نفسِّر قتله لعدوّه، وقوله: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾[١]؟

وقوله بعد ذلك: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[٢].

الجواب: يبدو أنّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما رأى الرجلين يقتتلان أراد عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يدفع الأذيّة عن المؤمن الذي استنصره، فوكز موسى عدوّه، والوكز هو الضرب بجمع الكفّ[٣]، وعليه فسَّر الشيخ الطبرسيّ الآية بأنّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ «دفع في صدره بجمع كفّه»[٤]. والظاهر أنّه لم يقصد بضربه قتله، لكنّ ما حصل غير ما قصد؛ إذ قُتِل الرجل، وقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ «هذا من عمل الشيطان»، يريد به أنّ التخاصم الذي حصل بين الرجلين سببه الشيطان، ولا يريد أنّ ما حصل منه عَلَيْهِ السَّلَامُ سببه الشيطان.

أمّا طلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من اللّه تعالى أن يغفر له، لأنّه

(١) سورة القصص، الآية ١٥.
(٢) سورة القصص، الآية ١٦.
(٣) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج١٠، ص ٣٢٥.
(٤) الطبرسيّ، الفضل، مجمع البيان، تحقيق لجنة من العلماء، ط١، بيروت، مؤسسة الأعلميّ، ١٤١٥هـ، ج٧، ص ٤١٩.

ظلم نفسه، فإنّه يدور حول تداعيات هذا الحدث، والعقوبة المترتِّبة عليه في ظلّ سلطة فرعون، فطلب من اللّه تعالى أن يغفر، أي يستر ما جرى عليه؛ لأنّ المغفرة تعني الستر[١].

والشاهد على كون النبيّ موسى عليه السلام لم يكن نادمًا على ما فعله هو أنّه قال بعد هذه الحادثة: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[٢]، والمجرمون هم قوم فرعون، فهو يعد اللّه تعالى أنّه لن يكون سندًا للمجرمين، بل سيستمر بمكافحة أعداء اللّه تعالى مهما كلّفه ذلك.

موسى عليه السلام وطلب رؤية اللّه

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

---

(١) راجع تفسير الآيات في جواب الإمام الرضا عليه السلام للمأمون (الصدوق، محمّد، عيون أخبار الرضا، ج١، ص ١٧٦).

(٢) سورة القصص، الآية ١٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

السؤال: كيف طلب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رؤية اللّه تعالى، وهو يعرف أنّها مستحيلة، فكيف يطلب شيئًا مستحيلاً؟

الجواب: إنّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يسأل الرؤية لنفسه، وإنّما سألها لقومه، فقد روي أنّ قومه طلبوا ذلك منه، فأجابهم بأنّ الرؤية لا تجوز عليه تعالى، فلجّوا به، وألحّوا عليه في أن يسأل اللّه تعالى أن يريهم نفسه، وغلب في ظنّه أنّ الجواب إذا ورد من جهته، جلَّت عظمته، كان أحسم للشبهة وأنفى لها، فاختار السبعين الذين حضروا الميقات، لتكون المسألة بمحضرٍ منهم، فيعرفوا ما يرد من الجواب، فسأل عَلَيْهِ السَّلَامُ، على ما نطق به القرآن»[١] ، فكان الجواب الإلهيّ بما يدلّ على استحالة الرؤية، فقوله تعالى: ﴿انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾[٢]، فعلّق الرؤية على استقرار الجبل حين اندكاكه، وهو مستحيل، والتعليق على المستحيل مستحيل، فالرؤية المعلَّقة على الاستقرار في حال الاندكاك مستحيلة.

(١) المرتضى، علي، تنزيه الأنبياء، (لا،ط)، قم، الشريف الرضي، (لا،ت)، ص ٧٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية ١٤٣.

والشواهد على صحّة هذا الجواب، وأنّ السؤال هو لقومه وليس له هو:

١- قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾[٣]، فأضاف موسى عليه السلام ذلك إلى السفهاء، وهذا يدلّ على أنّ الطلب لهم، وليس له.

غضب موسى عليه السلام من أخيه عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾[٤].

(١) سورة النساء، الآية ١٥٣.
(٢) سورة البقرة، الآية ٥٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية ١٥٥.
(٤) سورة الأعراف، الآية ١٥٠.

وقال اللّه تعالى عن لسان هارون عليه السلام: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[١].

يبدو من الآية أنّ النبيّ موسى عليه السلام غضب من أخيه هارون، وكلاهما نبيّان، فإن كان غضبه بحقّ يخلّ ذلك بعصمة هارون عليه السلام، وإن لم يكن بحقّ يخلّ بعصمة موسى عليه السلام، فكيف نجيب عن هذه الإشكاليّة؟

والجواب: أنّ النبيّ موسى عليه السلام إنّما جرّه إلى نفسه ليناجيه، فهو لم يجذبه إليه بكتفه، بل شدّه نحوه برأسه ليحدّثه، وهذا الأمر ليس فيه بنفسه دلالة على موقفٍ سلبيّ، أو إهانة، فإنّه قد يحصل بين شخصين حينما ترتفع الكلفة والمجاملات بينهما، والآية التي يقول فيها موسى عليه السلام: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ﴾[٢]، فيها دلالة واضحة على تحميل قومه مسؤوليّة ما حصل، بدون تحميل أخيه هارون عليه السلام ذلك.

---

(١) سورة طه، الآية ٩٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٠.

أمّا قول هارون عليه السلام: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾[١]، وقوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ﴾[٢]، فهما لدفع توهّم الحاضرين أنّ المشكلة بين موسى وهارون عليه السلام، لا سيّما أنّ بني إسرائيل كانوا على نهاية سوء الظنّ بموسى عليه السلام، حتّى إنّ هارون عليه السلام كان قد غاب عنهم غيبة، فقالوا لموسى عليه السلام: أنت قتلته، فلذا أراد هارون أن يبعد سوء ظنّهم عن موسى عليه السلام[٣].

اعتراض موسى عليه السلام على الخضر عليه السلام

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً من عندنَا وَعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا

---

(١) سورة طه، الآية ٩٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٥٠.

(٣) المرتضى، علي، تنزيه الأنبياء، ص ٨٠.

رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا * فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن

رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾[١].

السؤال: كيف نفسِّر الخطأ الذي حصل من النبيّ موسى عليه السلام حينما وصف أفعال الخضر عليه السلام، وقال له: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾[٢]، أي منكرًا، وكيف نعت الغلام بالنفس الزكيّة، وهو ليس كذلك، فأين هذا من العلم الخاصّ الذي تحدّثنا عنه سابقًا؟

الجواب: إنّ موسى عليه السلام كان ينطلق في كلامه من كون الأحكام الشرعيّة تتعلّق بظواهر الأمور، لذلك فإنّه حينما رأى الخضر عليه السلام يخرق السفينة، فإنّه عبّر عن كون ذلك أمرًا ينكره من يراه بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾[٣]، وهذا أمر صحيح ، فظاهر ما جرى هو أمر مستنكر عند الناس، وحينما رآه يقتل الغلام عبّر عن كون ذلك في الظاهر قتلاً لنفس لم ترتكب ما تستحقّ القتل بقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً

(١) سورة الكهف، الآيات ٦٥- ٨٢.
(٢) سورة الكهف، الآية ٧١.
(٣) سورة الكهف، الآية ٧١.

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾[١]، فالمراد من الزكيّة المعنى الذي قلناه، وهو عدم استحقاق هذه النفس للقتل، وليس المراد منها الطاهرة طهارة داخليّة، ولا يخفى أنّ القتل بدون موجب، بحسب الظاهر، هو أمر يستنكره الناس، وحينما رآه يقيم الجدار بدون أجر، عبّر عن كون هذا العمل التطوعيّ لا يناسب، بحسب الظاهر، الموقف السلبيّ لأهل القرية بقوله: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[٢].

إنّ كلّ ما تقدّم من النبيّ موسى عليه السلام هو صحيح، بناءً على ظواهر الأمور، أمّا عمل الخضر عليه السلام فكان يمثّل مجريات الإرادة الإلهيّة في الواقع، لا في الظاهر، وبمعنى آخر كان يمثّل الأفعال التكوينيّة لله تعالى التي تنطلق من أسرار لا يعلمها الإنسان. وقد أراد الخضر عليه السلام من خلال هذه العمليّة التربويّة أن يطلعه على الظواهر والواقع بأسراره لينتج منه تسليم لله تعالى فيما يقوم به، حتّى لولم يفهمه الإنسان، فإنّ خرق السفينة عمل مستنكر في الظاهر يوجب

(١) سورة الكهف، الآية ٧٤.
(٢) سورة الكهف، الآية ٧٧.

عادةً استنكارًا من أصحابها على ما جرى، إلاّ أنّه في الواقع كان لصالح أربابها، وكذلك قتل الفتى عمل مستنكر في الظاهر، لكنّه لمصلحة الوالدين في الواقع، وهكذا التطوّع بعمارة الدار لمن لا يستأهل، فإنّه مستهجن ظاهرًا، لكنَّ واقعه لصالح أهل الإيمان.

من هنا فقد كان موسى عليه السلام محقًّا فيما قال، بحسب عالم الظاهر، وكان الخضر عليه السلام محقًّا فيما فعل بحسب عالم الواقع.

إضافةً إلى ما سبق، أشار بعضهم إلى رسالة خفيّة من اللّه تعالى للنبيّ موسى عليه السلام، فإنّ المحطّات مع الخضر عليه السلام هي شبيهة بمحطّات ثلاث جرت في حياته، فخرق السفينة شبيه بإلقائه طفلاً في سفينة صغيرة في متاهة النهر، وكانت النتيجة الحياة العزيزة والنبوّة الشريفة، وقتل الغلام شبيه بقتل موسى عليه السلام لعدوِّه حيث أنجاه اللّه تعالى، والتطوّع ببناء الجدار شبيه لتطوّعه للسقاية لابنتي شعيب عليه السلام؛ حيث كان ذلك مقدِّمة للتحوُّل الإيجابيّ في حياة النبيّ موسى عليه السلام.

13

هل أخطأ داود عليه السلام في حكمه ؟

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن

سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[١].

السؤال: هل أخطأ النبيّ داود عليه السلام في ما حكم به، باعتباره سمع من أحدهما، وحكم قبل أن يسمع من الآخر؟

ومن الواضح أنّ القاضي لا يحكم إلا بعد الاستماع إلى الطرفين، ألا ينافي ما ورد في الآية عصمة النبيّ داود عليه السلام.

قبل الإجابة لا بدّ من لَفتِ النّظر إلى أنّه إضافةً إلى الأدلّة العامّة التي ذكرناها سابقًا على عصمة الأنبياء عليهم السلام، فإنّ الملاحظ كون الآيات السابقة وردت في «سورة ص» التي هي في صدد الاحتجاج على منكري النبوّة، أيلائم هذا الأمر أن تكون الآيات في مورد ذمّ أحد الأنبياء عليهم السلام.

أمّا السؤال، فله جوابان:

الأوّل: ما ذكره أكثر المفسِّرين[٢]، استنادًا إلى بعض

---

(١) سورة ص، الآيات ٢١-٢٦.

(٢) الطباطبائيّ، محمّد حسين، تفسير الميزان، (لا،ط)، قم، منشورات جماعة المدرسين، ج١٧، ص١٩٣.

الروايات بأنّ الخصمين هما من الملائكة، وقد تمثّلا برجلين، وجاءا إلى نبيّ اللّه، وهذا التفسير يدفع الاستغراب في كون الخصمين لم يدخلا من الباب الرئيسيّ، بل صعدا السور، وأتيا إلى محراب نبيّ اللّه داود عليه السلام ، وبناءً عليه، فإنّ عالم التمثّل هو كعالم الرؤيا الذي لا تكليف فيه، وإنّما التكليف منحصر في عالمنا المشهود الذي هو عالم المادّة، وواقعة التخاصم والحكم لم تقع فيه، ولم يكن فيه متخاصمان، ولا نعجة، ولا نعاج، بل كان كلّ ذلك في عالم التمثّل، وعليه لا مانع من الكلام أنّ داود عليه السلام أخطأ في إصدار الحكم قبل أن يسأل الخصم الآخر، حاله في ذلك حال آدم عليه السلام ، في الجنّة حيث لم يكن هناك تكليف، وكانت القضيّة فتنة وامتحانًا لداود عليه السلام ، والذي للّه من باب التدريب على الحكم في ذلك العالم كي لا يخطئ في هذ العالم، وحينما علم داود عليه السلام بالخطأ، فإنّه استغفر، وأناب، كاستغفار آدم عليه السلام وإنابته[1].

---

(١) المصدر السابق، ص١٩٣-١٩٤.

الثاني: أنّ هذه القضيّة حصلت في هذا العالم المشهود، لكن يقال: إنّ كون الحكم القضائيّ لا يصحّ في أصول المحاكمات إلاّ بعد الاستماع إلى الطرفين ليس محسومًا بشكل مطلق، بحيث يجب الالتزام به عند جميع القضاة والحكَّام، حتّى لو كانوا يعلمون الواقع، فما المانع أن يكون داود عليه السلام قد خوَّله الله تعالى أن يحكم بحسب علمه الواقعيّ، وقد فعل ذلك بمجرَّد أن استمع إلى الطرف الأوّل، وممّا يؤيِّد هذا الوجه ما ورد في روايات معتبرة السند أنّ الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف سوف يحكم بين الناس بحكم داود عليه السلام، لا بحكم البيِّنات والأيمان[1].

تفسير إسرائيليّ

فسَّر البعض الآيات السابقة بتفسير فيه طعن كبير بنبيّ الله داود عليه السلام، إذ ربط قضيّة التحكيم بكون نبيّ الله عليه السلام كان قد رأى زوجة أحد جنوده، ويدعى أوريا، فأعجبته، فأرسله النبيّ داود عليه السلام في معركة، وأمره أن يتقدّم أمام

(١) انظر: الكلينيّ، محمّد، الكافي، ج١، ص ٣٩٧.

التابوت الذي فيه سكينة بغرض أن يقتل في تلك المعركة، وهذا ما حصل، فتزوّج داود عليه السلام أرملة ذلك الجنديّ فيما بعد.

فأرسل اللّه تعالى إلى داود عليه السلام ملكين بصورة رجلين، وكان الهدف من ذلك إيصال رسالة إلى داود عليه السلام ؛ بأنّه آثر أن يأخذ امرأة ذلك الجنديّ، مع أنّ لديه الكثير من النساء.

والرواية التي أفادت هذا المضمون، إضافةً إلى مخالفتها ما تقتضيه العقول في الأنبياء عليهم السلام ، فإنّ رواتها مطعون بهم. ويبدو أنّ مصدر هذه الرواية اليهود الذين سرَّبوا الكثير من مضامين كتبهم إلى المسلمين بقالب روايات عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي كتبهم رواية قبيحة جدًّا عن داود عليه السلام ، تعتبره قَتَل أوريا بالسيف، وأَخَذَ امرأته، فأولدت منه سليمان[1].

(١) أنظر: مغنيّة، محمّد جواد، تفسير الكاشف، ج ٦، ص ٣٧٠.

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا أوتي برجل يزعم أنّ داود تزوّج بامرأة أوريا إلا جلدته حدين: حدًّا للنبوّة، وحدًّا للإسلام»[١].

ما معنى فزع داود عليه السلام مع أنّه نبيٌّ معصوم؟

الجواب: قال الراغب: «الفزع انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف»[٢].

فهو ردّة فعل طبيعيّة من الخوف، وبالنسبة لمواءمة ذلك مع النبوّة أفاد العلّامة الطباطبائيّ (ره) بأنّه يوجد فرق بين الخشية والخوف، فالخشية هي تأثّر القلب بحيث يستتبع الاضطراب والقلق، وهي رذيلة مذمومة إلاّ حينما تكون الخشية من اللّه تعالى، ولذا كان الأنبياء عليهم السلام لا يخشون غيره تعالى، قال عزّ وجل: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾[٣].

أمّا الخوف فهو التأثّر عن المكروه في مقام العمل بتهيئته

---

(١) الشريف المرتضى، تنزيه الأنبياء، ط٢، بيروت، دار الأضواء، ١٤٠٩هـ، ص ١٣٢.

(٢) الراغب الأصفهانيّ، مفردات غريب القرآن، ط٢، دفتر نشر الكتاب، ١٤٠٤هـ، ص ٣٧٩.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٣٩.

ما يتحرَّز به عن الشرّ، ويدفع به ذلك المكروه، وهو ليس برذيلة مذمومة لذاته، بل هو حسن فيما يحسن الاتّقاء والتحرّز منه، قال تعالى مخاطبًا رسوله محمّدًا صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾[1].

بناءً على ما تقدَّم، فإنّ الفزع هو انقباض من المخوف في مقام العمل، فليس هو برذيلة، فلا مشكلة في نسبته إلى داود عليه السلام.

وأمّا سبب خوفه وحذره منهما فهو لأنّهما لم يدخلا من الباب الرئيسيّ، بل صعدا السور، ودخلا عليه، وهو في محرابه، وفي هذه الحال من الطبيعيّ أن يحذر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ويُجري احترازاته الوقائيّة منهما.

ما معنى استغفار داود عليه السلام وإنابته؟

الجواب: إنّ استغفار داود عليه السلام وإنابته، أي رجوعه إلى الله تعالى، هو أمر طبيعيّ بحسب ما قدّمناه سابقًا في تفسير معنى ذنوب الأنبياء عليهم السلام، فإنّ استغفارهم قد يكون عن كلّ

---

(١) سورة الأنفال، الآية ٥٨.

شيء يأخذهم من حالة القرب الخاصّة، حتّى لو كانت قضاءً محقًّا بين الناس.

14

ما سرُّ غضب يونس عليه السلام، وظلمه، وأنَّ اللّه لن يقدر عليه؟

يونس بن متّى عليه السلام

قبل الإجابة عن الأسئلة السابقة نلقي نظرة إلى البيت الذي تربّى فيه يونس عليه السلام، وهو بيت أبيه متّى، الذي ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قرين داود في الجنّة، ففي الرواية عنه عليه السلام: «إنّ داود النبيّ عليه السلام قال: يا ربّ، أخبرني بقريني في الجنّة، ونظيري في منازلي، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: إنّ ذلك متّى أبا يونس، فاستأذَنَ الله في زيارته، فأذن له، فخرج هو وسليمان ابنه حتّى أتيا موضعه، فإذا هُما ببيت من سعف، فقيل لهما: هو في السوق،...اطلباه في الطالبين...فجلسا ينتظرانه، إذ

أقبل وعلى رأسه وقر من حطب... فألقى عنه الحطب فحمد الله، وقال: من يشتري طيِّبًا بطيِّب... حتّى باعه. ...فسلّما عليه، فقال: انطلقا بنا إلى المنزل، واشترى طعامًا بما كان معه، ثمّ طحنه وعجنه، ثمّ أجّج نارًا وأوقدها، ثمّ جعل العجين في تلك النار، وجلس معهما يتحدّث...(فلمّا نضجت) وضعها في فيه، قال: بسم الله، فلمّا ازدردها قال: الحمد لله، ثمّ فعل ذلك بأخرى، ثمّ أخذ الماء فشرب منه، فذكر اسم الله، فلمّا وضعه، قال: الحمد لله، يا ربّ، من ذا الذي أنعمت عليه ما أوليتَه مثلَ ما أوليتني! قد صحّحت بصري وسمعي وبدني، وقوَّيتني حتّى ذهبت إلى شجر لم أغرسه، ولم أهتمّ لحفظه، جعلتَه لي رزقًا، وسقتَ إليّ من اشتراه منّي، فاشتريت بثمنه طعامًا لم أزرعه، وسخَّرت لي النار فأنضجته، وجعلتني آكله بشهوة أقوى به على طاعتك فلك الحمد، ثمّ بكى.
قال داود: يا بنيّ، قم فانصرف بنا، فإنّي لم أرَ عبدًا قط

أشكر من هذا»[١].

بعد هذه القصّة المعبِّرة سنجيب عن السؤال السابق ضمن عرضنا لقصّة نبيّ اللّٰه يونس عليه السلام.

يونس عليه السلام مع قومه

عاش النبيّ يونس عليه السلام في قوم، جاهد وبالغ في محاولة هدايتهم، إلاّ أنّهم أصرُّوا على الكفر، إلى أنْ يئس النبيّ من انتقالهم إلى الإيمان، فهدّدهم بأنّه سيدعو اللّٰه تعالى عليهم إن لم يؤمنوا، ومع ذلك لم يكترثوا، أخبرهم بطبيعة العذاب القادم، وأنّه سيهلكهم، فلم يكترثوا، فإذا به يزداد منهم للّٰه غضبًا، ويدعو عليهم بإنزال العذاب الإلهيّ. فاستجاب اللّٰه دعاءه، وأوحى عزّ وجل إليه بزمن العذاب التدريجيّ.

غادر النبيّ يونس عليه السلام قريته ﴿مُغَاضِبًا﴾[٢] للّٰه من قومه، ينتظر حلول العذاب، إلاّ أنّ ما حصل هو أمر آخر، فقد بدأ اللّٰه تعالى بإنزال العذاب بشكل تدريجيّ، كما أخبر نبيّه

---

(١) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٤٠٣.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

الذي أخبر قومه بذلك، وحينما رأى قومه ما يحصل عليهم، وأنّه على النحو الذي أخبرهم به يونس عليه السلام، فإنّهم عرفوا صدقه ونبوّته، فإذا بهم يدعون اللّه تعالى، ويتضرَّعون إليه ليرفع عنهم العذاب، فلمّا رأى اللّه منهم إيمانًا صادقًا، وتوجّهًا مخلصًا، وتوبةً نصوحًا، رفع عنهم العذاب، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[1].

إنّه درس في عدم اليأس من تغيير الإنسان المنحرف، فكلمة الهداية قد لا تؤثّر حين إطلاقها، إلاّ أنّها قد تقبع في القلب لتؤثّر بعد حين.

يونس عليه السلام في البحر

قرّر يونس عليه السلام أن لا يرجع إلى قومه، فذهب إلى ساحل البحر، وصعد في سفينة أبحر فيها مع بقيّة ركابها، وفي وسط البحر برز لهم «نون» أي حوت، فقرّر ركّاب السفينة

(١) سورة يونس، الآية ٩٨.

أن يُضحَّى بأحدهم، ويُرمى به، ليلتقمه الحوت، فيكون فاديًا لبقيّة الركّاب، فقرّروا القرعة، فوقعت على يونس، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾[1]، أي قارع، فكان من المقروعين المغلوبين[2].

يونس عليه السلام في الحوت

قال تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[3]، فلم يقل أكله، بل التقمه أي ابتلعه، ومليم، أي ملامًا، معاتبًا، ولعلَّ المراد أنّه كان ملامًا من أهل السفينة الذين استنتجوا أنّه رجل مشؤوم بسبب ما حصل معهم من مجيء الحوت، لا سيّما أنّ القرعة وقعت عليه. وأوحى الله إلى الحوت كما ورد في بعض الروايات: «إنّي لم أجعل عبدي رزقًا لك، ولكنّي جعلت بطنك له مسجدًا»[4].

---

(١) سورة الصافات، الآيات ١٣٩-١٤١.
(٢) الطريحيّ، فخر الدين، تفسير غريب القرآن، تحقيق محمّد كاظم الطريحي، (لا،ط)، قم، زاهدي، (لا،ت)، ص٥٠٦.
(٣) سورة الصافات، الآية ١٤٢.
(٤) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج١٤، ص ٤٠٤.

وفي داخل الحوت حدّثنا اللّه تعالى عن مواقف النبيّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ:

الموقف الأوّل: التوكّل الكامل

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[١] أي وصاحب الحوت، إذ ذهب غاضبًا للّه من قومه الذين لم يؤمنوا، فإذا به في بطن الحوت.

كيف نتصوَّر ردّة فعل يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعنوياته، وهو في بطن الحوت؟

من الطبيعي للإنسان العاديّ أن ييأس من النجاة، ويحضِّر نفسه للموت المحتوم، إلاّ أنّ النبيّ يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ كان له موقف آخر، فهو ﴿ظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[٢].

إنّ كلمة ﴿ظَنَّ﴾ تأتي في اللغة بمعنى تيقَّن، ولا ينحصر استعمالها بمعنى الاحتمال الأقوى، وقد استعملها القرآن الكريم بمعنى الاعتقاد اليقينيّ في قوله تعالى:﴿قَالَ الَّذِينَ

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[١].

أمّا كلمة ﴿نَّقْدِرَ﴾، فمن معانيها نضيِّق، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ﴾[٢]، أي من ضيَّق عليه رزقه، وقوله تعالى: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقَدِرُ﴾[٣]، أي يوسِّع ويضيِّق، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾[٤] أي ضيَّق عليه.

بناءً على ما تقدَّم، فإنّ معنى ﴿ظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾[٥]، أي اعتقد اعتقادًا جازمًا أنّنا لن نضيِّق عليه رزقه، بل سنرزقه وهو في بطن الحوت، وهذا هو مقتضى التوكّل الذي ينطلق من الإيمان بالله تعالى، العالم بالحال، القادر على التغيير، الكريم في العطاء، إنّه التوكُّل الكامل على الله تعالى.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٤٩.
(٢) سورة الطلاق، الآية ٧.
(٣) سورة الرعد، الآية ٢٦.
(٤) سورة الفجر، الآية ١٦.
(٥) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.

الموقف الثاني: توحيد الله

قال تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾[١]، أي في ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت ﴿أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ﴾[٢]، إنّه خطاب أنسٍ مباشرٍ مع اللّٰه تعالى، بشعار التوحيد الذي يفيد أنّ لا معبود يستحق العبادة إلاّ اللّٰه تعالى.

الموقف الثالث: تنزيه الله

وأكمل نبيّ اللّٰه ﴿أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ﴾[٣]، أي إنّي أنزّهك عن كلّ نقصٍ، فالتسبيح هو تنزيه للّٰه تعالى عن كلِّ عيبٍ، وهو الأنشودة المعبِّرة عن الكمال الإلهيّ، ويشير اللّٰه تعالى إلى أثر هذا التسبيح بقوله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٤].

إنّ نبيّ اللّٰه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو في موقفه الصعب في بطن الحوت، كان ينشد ترنيمة التوحيد والتنزيه والتوكّل.

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.
(٤) سورة الصافات، الآيتان ١٤٣-١٤٤.

الموقف الرابع: الإقرار بالظلم

وأكمل نبيّ اللّه يونس: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[١] إنّه إقرار بواقع مرتبته التي فوقها مرتبة كماليّة أعلى، ممّا يعدّه الأنبياء ظلمًا، فإنّه عليه السلام تأمَّلَ في دعائه على قومه، الذي هو دعاء حقّ، وقد استجابه اللّه تعالى، لكنّه وجد أنّه كان من الأنسب له أن يصبر عليهم أكثر ممّا صبر. إنَّ الظلم هنا هو على قاعدة الحديث الذي ذكرناه سابقًا: «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين»[٢].

الاستجابة الإلهيّة

بعد تلك المواقف الإيمانيّة، استجاب اللّه تعالى لنبيِّه عليه السلام به، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾[٣].

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.
(٢) المجلسيّ، محمّد باقر، بحار الأنوار، ج١١، ص ٢٥٦.
(٣) سورة الأنبياء، الآية ٨٨.

تعميم الاستجابة

ولم يحصر اللّه تعالى الاستجابة بالنبيّ يونس عليه السلام، بل عمَّمه لكلّ من تكون له تلك المواقف الأربعة: التوكّل، والتوحيد، والتنزيه، والاعتراف بالظلم، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

أي كونوا مثل يونس، فإنّي أخلِّصكم من الغمّ، ولو كنتم في بطن الحوت.

وقد أصبحت ترنيمة يونس دافعة للغمّ عن كلّ مؤمن، فعن الإمام الصادق عليه السلام: «أربع لأربع...والرابعة للهمّ والغمّ ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2]»[3].

(١) سورة الأنبياء، الآية ٨٨.
(٢) سورة الأنبياء، الآية ٨٧.
(٣) الحرّ العامليّ، محمّد، وسائل الشيعة، ج١٥، ص ١٣٧.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

-أ-

ابن أنس، مالك:

٢. الموطأ، تحقيق الباقي، بيروت، دار إحياء الكتب العربية، (لا،ت).

ابن الأثير، مجد الدين:

٣. النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، ط٤، قم، إسماعيليان، ١٣٦٤هـ.ش.

ابن حنبل، أحمد:

٤. مسند أحمد، (لا، ط)، بيروت، دار صادر، (لا، ت).

ابن فارس، أحمد:

٥. معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، (لا.ط)، قم، مكتب الإعلام الإسلاميّ، ١٤٠٤هـ.

ابن منظور، محمّد:

٦. لسان العرب، (لا.ط)، قم، نشر أدب الحوزة، ١٤٠٥هـ.

-ب-

الباقلانيّ، محمّد:

٧. إعجاز القرآن، تحقيق احمد صقر، ط٣، دار المعارف، مصر، (لا،ت).

بركات، أكرم:

٨. سعادة الزوجين في ٣ كلمات، بيروت، دار السراج.

٩. يسألونك عن الله، ط١، بيروت، بيت السراج، ١٤٣٣ هـ،

١٠. دروس في علم الدراية، ط٢، بيروت، دار الصفوة، ٢٠٠٩،

١١. حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة، ط٦، بيروت، بيت السراج، ٢٠١٢م.

بيضون، لبيب:

١٢. الإعجاز العلمي في القرآن .

-ج-

الجوهريّ، إسماعيل:

١٣. الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، ط٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ.

-ح-

الحرّ العامليّ، محمّد:

١٤. الجواهر السنية،(لا،ط)، النجف، مطبعة النعمان، ١٩٦٤م.

١٥. وسائل الشيعة، تحقيق ونشر مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، قم، ١٤١٤ هـ.

-ر-

الراغب الأصفهانيّ، الحسين:

١٦. المفردات في غريب القرآن، ط٢، (لا،م)، دفتر ناشر الكتاب، ١٤٠٤ هـ.

الرافعيّ، مصطفى:

١٧. إعجاز القرآن.

-س-

السبحانيّ، جعفر:

١٨. محاضرات في الإلهيّات، (لا،ط)، قم، مؤسسة الإمام الصادق، (لا،ت).

السرخسيّ:

١٩. أصول السرخسيّ.

السيوطيّ، جلال الدين:

٢٠. الاتقان، (لا،ط)، بيروت، دار الفكر، (لا،ت).

٢١. الدر المنثور، (لا،ط)، بيروت، دار المعرفة، (لا،ت).

-ش-

الشريف المرتضى، عليّ:

٢٢. تنزيه الأنبياء، ط٢، بيروت، دار الأضواء، ١٤٠٩هـ.

-ص-

الصدوق، محمّد:

٢٣. التوحيد، تحقيق هاشم الطهرانيّ، (لا، ط)، قم، جماعة المدرّسين، (لا،ت).

٢٤. عيون أخبار الرضا، (لا،ط)، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٤٠٤هـ.

٢٥. كمال الدين، (لا،ط)، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤٠٥هـ.

الصنعانيّ:

٢٦ المصنّف، تحقيق الأعظمي، ط٢، المجلس العلمي، ١٤١٣هـ.

-ط-

الطباطبائيّ، محمّد حسين:

٢٧. تفسير الميزان، (لا،ط)، قم، منشورات جماعة المدرسين، ١٩٨٣م.

الطبرسيّ، الفضل:

٢٨. مجمع البيان، تحقيق لجنة من العلماء، ط١، بيروت، مؤسسة الأعلميّ، ١٤١٥هـ.

الطريحيّ، فخر الدين:

٢٩. تفسير غريب القرآن، تحقيق محمّد كاظم الطريحي، (لا،ط)، قم، زاهدي، (لا،ت).

الطوسيّ، محمّد:

٣٠. التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب قصير العامليّ، ط١، طباعة ونشر مكتب الإعلام الإسلاميّ، ١٤٠٩هـ.

٣١. الخلاف، (لا،ط)، قم، مؤسسة النشر الإسلاميّ، ١٤٠٧ه.

- ك -

الكلينيّ، محمّد:

٣٢. الكافي، تحقيق علي أكبر الغفاري، ط٥، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٣هـ.

-م-

المجلسيّ، محمّد باقر:

٣٣. بحار الأنوار، تحقيق محمد تقي المصباح اليزدي ومحمد الباقر البهبودي، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٣م.

المغنيّة، محمّد جواد:

٣٤. التفسير الكاشف، ط٣، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨١م.

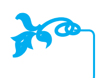
معرفة، محمّد هادي:

٣٥. صيانة القرآن من التحريف، تحقيق ونشر مؤسسة النشر الإسلامي، قم، (لا،ت).

المفيد، محمّد:

٣٦. تصحيح اعتقادات الإمامية، تحقيق حسين دركاهي، ط٢، بيروت، دار المفيد، ١٩٩٣م.

الفهرس



صدر للمؤلف

١. حقيقة الجفر عند الشيعة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٢. حقيقة مصحف فاطمة عند الشيعة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر. حائز على جائزة أفضل كتاب لعام ٢٠٠٣م، في مهرجان الولاية الدوليّ في إيران.

٣. ولاية الفقيه، بين البداهة والاختلاف، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر. رسالة ماجستير حازت على درجة ممتاز، مع التنويه والتوصية بالنشر.

٤. دروس في علم الدراية، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر. معتمد في المناهج الدراسية الحوزويّة.

٥. وليالٍ عشر (من وحي عاشوراء)، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٦. برقية الحسين عليه السلام، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسيّة:

The Telegram of Hussein (pbuh).

Le Télégramme d’Al-Houssein (Qu’Allah le salue).

٧. وأتممناها بعشر (من وحي عاشوراء)، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٨. المسائل المصطفاة في أحكام الطهارة والصلاة فوز دو ايغواسو.

٩. أحكام النساء. فوز دو ايغواسو.

١٠. التبليغ من وحي التجربة، قمّ.

١١. Paulo em busca da verdade («باولو» الباحث عن الحقيقة - باللغة البرتغالية).

١٢. A ORACAO NO ISLAM «Assalat» (الصلاة في الإسلام باللغة البرتغالية).

١٣. مختصر الواجبات في الإسلام (UM RESUMO DOS DEVERES NO ISLAM)

١٤. خيوط القبعة، بيروت، دار الصفوة.

١٥. حائك القبعة (الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين)،

بيروت، دار الصفوة.

١٦. التكفير، ضوابط الإسلام وتطبيقات المسلمين، دار الأمير للثقافة والعلوم.

١٧. قافلة البشرية، من سفينة نوح إلى دولة المهديّ عجل الله فرجه الشريف، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

١٨. هذا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

١٩. محاضرات في الثقافة الإسلامية بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مجموعة يسألونك، وتضم:

٢٠. يسألونك عن اللّه، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسيّة:

They ask you about Allah.

Ils t’interrogent à propos Allah.

٢١. يسألونك عن الأنبياء عليهم السلام، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر. (بين يدي القارىء).

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسية:

They ask you about prophets

Ils t'interrogent sur les prophetes

٢٢. يسألونك عن الأئمة عليهم السلام، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسية:

They ask you about Imams.

ils t'interrogent sur les imams

٢٣. يسألونك عن الوليّ، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٢٤. يسألونك عن التقليد، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسيّة (مركز نون للتأليف والترجمة):

They ask you about Imitation.

Il t’interrogent sue le Taqlid.

٢٥. يسألونك عن القبر، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية:

They ask you about Death & the Barrier (The Call for Departure)

٢٦. يسألونك عن القيامة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية والفرنسية:

They Ask You about Resurrection

Ils t'interrogent sur la resurrection

مجموعة تعارفوا، وتضم:

٢٧. دليل العروسين بين الخطوبة والزفاف، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية:

Bride & Bridegroom Manual From Engagement to Marriage

٢٨. سعادة الزوجين في ثلاث كلمات، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٢٩. ٣ حقوق لحياة زوجيّة ناجحة، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٠. كيف تجعل ولدك صالحًا؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣١. كيف نتواصل مع الناس؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٢. كيف نبني مجتمعًا أرقى؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٣. آية الوصايا العشر، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مجموعة يزكّيهم، وتضم:

٣٤. ميزان السير والسلوك، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٥. برنامج السير والسلوك، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٦. هكذا تكون سعيدًا، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

مترجم إلى الإنكليزية: Finding Happiness.

٣٧. كيف ترجع كما ولدتك أمك؟ بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٨. شهر اللّه آدابه - مناسباته - أولياؤه، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٣٩. لا تَقرَبُوا، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

٤٠. كيف نتواصل مع اللّه، بيروت، بيت السراج للثقافة والنشر.

يمكنك تصفح جميع هذه الكتب وغيرها

على موقع سراج القائم عجّل الله فرجه الشريف

www.sirajalqaem.com